على إسماعيل
خبير وباحث أول العلوم العربية والإسلامية
بالمركز القومي للبحوث التربوية - القاهرة

هؤلاء العشرة المبشرون بالجنة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى
١٤١٠ ـ ١٩٩٠ م

تم صف الأحرف
مكتب اليُسر لخدمات الكمبيوتر
القاهرة ـ ت: ٢٤٤٩٧٥

روى أحمد والضياء عن سعيد بن عوف ، كما رواه أيضاً الترمذى عن عبد اللّه بن عوف أن رسول اللّه ﷺ قال :

« أبوبكر فى الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعليّ في الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وسعد بن أبى وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح في الجنة . رضي اللّه عنهم أجمعين ».

(حديث شريف)

*   *   *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (١) .

أيها القارىء الكريم ..

هذه كلمات ، حاولت فى كل كلمة منها جلاء صورة ، أو جانب منها لكل بطولة من هذه البطولات لأولئك العشرة المبشرين بالجنة من أبطال العروبة والإسلام . ولما رأيت لهم ميزة عامة تجمعهم ، وسياجاً واحداً ظللهم ، أفردت لهم كتاباً خاصاً جمعهم من هذه السلسلة لأعلام المسلمين وأبطالهم .

فكان هذا الكتاب فى هؤلاء الأبطال الذين بشرهم الذى لا ينطق عن الهوى الرسول المصطفى ﷺ بالجنة فى غير موضع وفي أكثر من مناسبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ (٢) .

وقد حاولت فى هذا الكتاب مجتهداً جلاء الجانب التربوى فى إطار منهجى حتى يجد النشء المسلم فى سيرة أجداده البطولة الحقيقية واضحة المعالم ، بارزة السمات ، جديرة بالتقدير والاحترام ، هى دون غيرها - أو قبل سواها على الأقل - أجدر وأحق بأن تُقتدى ، وتُقدم للنشء فى التربية والإعلام قدوة طيبة وأسوة حسنة .

---

(١) التوبة : ١٠٠

(٢) النجم : ١ - ٣

وهذا المنهج ، وذلك الفكر ، اقتضيا إيجازاً مركزاً فى فكرة ، بينما تطلبت فكرة أخرى شيئاً من البسط حتى يصبح الهدف الذي وضعه الإطار العام إجرائياً ونصب العين دائماً .

والله الكريم أسأل التوفيق والرضا عن هذا العمل ، والقارئ العزيز أرجو أن يرسل لنا كل ملحوظة يراها وله الشكر سلفاً ، ونرجو أن ينال هذا الكتاب ما ناله كتاب « محمد ﷺ » من هذه السلسلة من تقدير وتشجيع وثناءات من القراء الأعزاء .. ولله الفضل والشكر ، وإنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

* * *

الأول : أبو بكر الصدِّيق

« إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » .

(حديث شريف)

● مجابهة ومواقف :

ليس هناك أحد إلا وقد جابه الحياة خلال مواقف أو موقف حسب ظروفه أو حظه في الحياة ، أو قدره فيها ، كما إنه ليس الإنسان وحده من بين مخلوقات الله الذي يجابه مواقف الحياة ، فهناك الظواهر الطبيعية التي لازمت الحياة كحرارة الجو في بيئة جغرافية ما ، أو الزلازل والبراكين في أخرى ، وقد ترى في غير هاتين . الحياة وعرة الطرقات ، أو متطرفة العادات ، وفي غير ذلك قد يندر الماء ، أو ينقص الطعام .

وتكاد بيئة شبه الجزيرة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام وحتى عهد غير بعيد تكون من البيئات ذات القسوة الشديدة متعددة الأسباب في معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية وإذا أراد أحد أن يستثنى الطائف ، وجزءاً من اليمن ، ومنطقة أوال من العروض من قسوة البيئة في بعض شئ من المشقة والمعاناة ، وليس في القسوة كلها .

وقد كانت حرارة الجو في شبه الجزيرة العربية تكاد لا تُطاق ولا سيما في مكة صيفاً ، والرطوبة والسيول في الشتاء ، ومكة حجر زاوية الحياة التجارية ، وبها الكعبة مركز الآلهة ، ومزار العُبَّاد من شبه الجزيرة . ويُصَوِّر أحمد أمين في كتابه « فجر الإسلام » شيئاً من قسوة هذه البيئة العربية : « كان ما ينبت من الزرع محدوداً ، وجعلت طبيعة المناخ النبات مبعثراً هنا وهناك ، وصعوبة السير في الصحراء جعل التلاحم بين سكان هذه البيئة صعباً ، واختراق الحضارات

الأخرى لها شاقاً ..... وكان الحر قاسياً ولا غيم يحجب الشمس ، ولا بناء يصد الرياح » ... ويستمر الكاتب الكبير فيقول : « وثروة السكان في كثرة حيواناتهم وهذه الثروة أيضاً تحت رحمة الطبيعة ... ولم يكن لهم في الجاهلية حكومة ذات سلطان أو نظام ولا دستور له الاحترام . فالعدل والظلم والخير والشر يخضع لما تواضعوا ، وتعارفوا عليه » .

وابن هذه البيئة المواطن العربي يقابل الطبيعة وجهاً لوجه ، يتأثر بها ، كما تؤثر فيه تأثيراً يظهر في أفكاره ، وعقليته وعاداته ، واتجاهاته ، تقسو البيئة ومع قسوتها تقسو قلوب سكانها فتصبح كالحجارة أو أشد قسوة ، إذا أضرمت نيران العداوة لم تفرق بين قريب أو بعيد ؛ يظهر ذلك في قول شاعر البحرين طرفه بن العبد قال :

وَظُلْمُ ذَوِي القُربَى أشَـدُّ مَضَاضَةً

عَلَى النَفْسِ مِنْ وَقْعِ الحِسَامِ المُهَنَّدَ

وليس غريباً ، أو عجيباً أن يُقْدِمَ بعض أبناء هذه البيئة فَيُقَدِّمَ صورة ليس بعدها دليل مادي على الغلظة والقسوة مثلما أثبته القرآن الكريم في سورة التكوير قال تعالى : ﴿ وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) ، ولكل خيال أن يتصور هذه القسوة هنا ! ويصور القرآن الكريم أيضاً مظاهر صراع هذه القسوة المؤلمة في سورة النحل قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ، أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢) .

في هذه البيئة العاتية القاسية التي يقول شاعرها :

* وَمَنْ لَمْ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَم * .

وفي مكة بالذات أشد مناطق شبه الجزيرة العربية قسوة فالطبيعة إما حر

---

(١) التكوير : ٨ - ٩ (٢) النحل : ٥٨ - ٥٩

قاتل ، أو برد قارس ، في منطقة جبلية يندر فيها الماء ، كما يقل أيضاً النبات أشرقت شمس الإسلام وهى تمس أولئك البدو ، سكان هذه الصحراء في عواطفهم ، وعقائدهم التي ورثوها عن أجدادهم فاستولت على مشاعرهم ، وامتلكت وجدانهم ، فطاف هؤلاء القوم حول معبوداتهم هائمين ، وركعوا لها مقلدين وهى حجارة صمّاء جوفاء ، من ماء وطين لا ترد عن نفسها عدوان فكيف تنفع الآخرين ؟

ولكن الإنسان أسرع ما يكون للثورة والعنف إذا ما مُس في عواطفه ، ولا سيما معتقداته الدينية فما بالك وهو أمي جاهل محدود التجارب ، قليل الثقافة يكاد يكون محجوباً عن الدنيا ، هذا الإنسان يتخطى العنف إلى الهيجان فعواطفه في غليان .

فكيف يجابه محمد بن عبد الله ﷺ هؤلاء القوم في هذه البيئة ؟ وكيف ينضوي أحد تحت لواء هذه الدعوة الجديدة ؟ ومن هؤلاء الذين يتبعون محمداً ﷺ . ويعادون قريشاً كلها ؟ وقد مس الإسلام عواطفها فيما يعبد القوم ويقدسون فعاب آلهتهم ، وحطم فكرة تعددها في جزم وحزم لا مناقشة فيه ، ولا مساومة ، قال الحق تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [1] .

وأين المساومة ؟ مهما كانت من القوم المقاومة مع هذا النداء الإلهي الخالد أبداً . قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [2] ولكن هل يترك كفار قريش محمداً يبلغ الرسالة ؟

فالأمر من الله الواحد القهار ، لعبد من عباده اصطفاه سبحانه وتعالى يبلغ الإسلام ، ومهما كان الأمر على عبد الله المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ

(١) سورة الإخلاص .   (٢) سورة الكافرون .

عجيباً ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

وإذا اضطرب ، وتدثر ، ثم يهدأ . فيكون نداء الله تعالى له : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ... ﴾ (٢) .

وكم ستكون المعاناة شديدة قاسية ، وتكون المجابهة مرة وعرة غير متكافئة ولكن محمداً ﷺ ملزم أن يستجيب لقول ربه : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٣) ولكن الحق – دائماً – واضح جلي ، وله أنصاره وأتباعه وأعوانه – مهما قل عددهم – فهم يتمسكون به ، وينضون تحت لوائه ، ويستعذبون كل صعب ، ويستهينون بكل مكابدة في سبيله ، حتى تراهم في مواقفهم وكأن دعوة الحق قد منحتهم بلسماً جديداً قد زاد ما وُهبوا من قوة وصلابة ، كما وَجَّهَ هذه القوة إلى قوة خيِّرة بناءة . لأن هؤلاء النفر من خلق الله لم تتعطل عقولهم ، أو تعمى قلوبهم ، فهم يفكرون ، والفكر كما يقول محمد ﷺ : « مخ العبادة » ، وفكرهم يسير في قنوات طبيعية سليمة تصل بهم إلى نتائج منطقية هي قيمهم ، واتجاهاتهم أو معتقداتهم .

دعا محمد ﷺ إلى الإسلام فجن جنون القوم في مكة ، وحاولت مكة أن تُثني محمداً ، فكان قوله ﷺ : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت الذي جئت به حتى أهلك دونه » .

فكانت الحرب لا مفر منها بين قوتين غير متكافئتين ، وقد انضم « أبو بكر ابن أبي قحافة عثمان بن عامر من تيم » إلى القوة القليلة الضعيفة قوة محمد ابن عبد الله ﷺ ، انضم إلى دعوة الإسلام فكان سبّاقاً إلى هذا الدين الجديد فهو أول المسلمين من الرجال الصناديد في مكة .

وقد ارتبط أبو بكر بن أبي قحافة بالتدين منذ ولادته ، فقد أسمته أمه

---

(١) العلق : ١ – ٥
(٢) المدثر : ١ – ٤
(٣) المدثر : ٧

« أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر » : « عبد الكعبة » تيمناً وبركة بهذا البيت العتيق . وكأن هذه البدوية قد وهبت ابنها الذي طال انتظارها له في بيئة تفخر بكثرة الرجال ، كما تزهو بالأموال لخدمة العقيدة . كما كانت تراها ، وتعتنقها ، فلعل هذا الاسم « عبد الكعبة » أوحى إلى صاحبه فيما أوحى به بأن العبادة جزء هام من مكونات الإنسان ، واستجابة طبيعية لفطرة الكائن البشري ولفكره، وفطنته الغربلة وسلامة الاختيار .

وليس هناك أدل على ذكاء أبي بكر ، ورجاحة عقله من استجابته السريعة لنداء الإسلام ، إلا موقفه من سحق المرتدين أيام خلافته كما سيأتي . ففي الأولى كان أبو بكر سبّاقاً للخير ، وفي الثانية كان حازماً فطناً ، ومن يقرأ ما كان يتردد على لسانه - رضي الله عنه - من عظاته وحكمه وعبره يجد هذا لا يتأتي إلا من رجل حكيم فطن خبير مجرب ، تجد ذلك في قوله : « احرص على الموت توهب لك الحياة » ، كما إنه هو القائل : « أصلح نفسك يصلح لك الناس » ، ويرحمه الله أيضاً ويجازيه عنا خير الجزاء فقد علّمنا : « كثير القول يُنسى بعضه بعضاً ، وإنما لك ما وُعيَ عنك » .

وهل وجدت أبلغ وأحكم منه حاكماً في مقالته يوم مبايعته بالخلافة قال : « لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني » إنها كلمة لبيب أديب .

ولم ينفع الصدّيق عقله الراجع ، ولا سداد رأيه وفطنته بأن يتفادى مجابهة تلك القوة الغاشمة التي كانت تجابه المسلمين فرادى وجماعات من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين ، كما لم تشفع له مكانته بين « تيم » قومه و« قريش » كلها فكان ثرياً من أثرياء مكة المعدودين .

كما كان حليماً حكيماً ، وكان نسّابة ، خطيباً بليغاً مؤثراً ، فكان كما يروي ابن عباس - رضي الله عنهما - عندما سئل عن الصدّيق قال : « كان خيراً كله على حدة كانت فيه » لم يُجْدِ ذلك كله من صفات أبي بكر بأن يلتمس طريقاً

يتفادى به غطرسة قريش وبطشها ، ولا بد أنه بحث عن ذلك الملجأ والملاذ طويلاً ، حتى يتفادى مجابهة قريش ذات البطش الأعمى . فكيف جابه ذلك الرجل الحليم هذه القوة الغاشمة ؟

اشتد الأذى على المسلمين فخرج أبو بكر مهاجراً إلى أرض الحبشة حيث فيها ملك لا يُظلم عنده أحد كما أعلم رسول الله ﷺ أصحابه بذلك ، وأذن لهم بالهجرة ، وبينما أبو بكر يسير لقيه ابن الدغنة وهو سيد قومه . فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أريد أن أسيح في الأرض لأعبد ربي حيث أخرجني قومي .

قال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج . إنك تُكْسِب المعدوم ، وتَصِلُ الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتُقْرِي الضيف ، وتُعين على نوائب الدهر ؛ فأنا لك جار.

ثم رجع أبو بكر ومعه ابن الدغنة الذي طاف عشية في أشراف قريش وقال لهم : إن أبا بكر لا يُخْرَج مثله ، ولا يَخْرَج ، أتُخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكَلّ ، ويُقري الضيف ، ويُعين على نوائب الدهر .

فقبلت قريش جوار ابن الدغنة وقالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، ويصلي فيها ، ويقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ، فلا يستعلن به . فإنا نخشى أن يفتن أبناءنا ونساءنا . فأعلم ابن الدغنة أبا بكر بذلك .

واستمر أبو بكر ينفذ ذلك ويعبد ربه في داره . حتى بدا له فابتنى مسجداً بفناء داره هذه . يصلي فيه ، ويقرأ القرآن وكان في ذلك رجلاً بَكّاء . فليس له على عينيه سلطان إذا قرأ القرآن . ونظر إليه أبناء المشركين ونساؤهم في إعجاب . فأفزع ذلك مشركو مكة . فأسرعوا إلى ابن الدغنة ينكرون على أبي بكر الاستعلان ، وطلبوا من ابن الدغنة أن يلتزم أبو بكر بالعهد فيعبد ربه في داره دون استعلان وإلا فاسأله أن يرد إليك ذمتك فإنَّا كرهنا أن ننقض عهدك . وفيما يرويه هنا محمد يوسف في كتابه « حياة الصحابة » عن عائشة

- رضي الله عنها - قالت : « فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال له : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن تُرجع إليّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل » وهل أبو بكر يعلم ما سوف يترتب على ذلك ؟

وآثر أبو بكر المجابهة لهذه القوة الطاغية إرضاءً لله بأن يعلن اسمه تعالى عندما يقرأ القرآن ، ويؤدي الصلاة ويعبد الله . آثر الصديق ذلك لأنه يحب الله ، ويستهين بكل شئ في سبيل ما يحب .

ولم يكن ذلك بأقل مشقة ، ولا أخف معاناة ، ولا أدنى إلى الخطر والهلاك من هجرة الصدّيق مع النبي ﷺ من مكة إلى يثرب . وعيون كفار قريش ترصد خطوات محمد وصحبه ، وينتهي أمرهم على قتله ﷺ قتلا تشترك فيه القبائل كلها ، حتى يعجز بنو هاشم عن الثأر من قريش كلها ، ويُقْدم أبو بكر الصدّيق في غبطة وسعادة على أن يُهاجر مع النبي ﷺ . وهو يعلم مجابهة قريش له ، وملاحقتها لركبه حتى وقوف شبابها على باب الغار الذي يختفي فيه محمد ﷺ وصاحبه أبو بكر ، ويصوِّر القرآن الكريم ذلك في قول الحق تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) . ويقطع الصدّيق مع النبي ﷺ زهاء ٤٧٥ كيلو متراً في أرض صحراوية قاسية ، وبيئة جبلية وعرة ، رديئة المناخ ، قليلة الماء . يسير الصدّيق مع النبي ﷺ وعامر بن فهيرة وهم يتعاقبون ركوب بعيرهم ، وقريش تخف وراء النبي تريد قتله .

والصدّيق يؤثر في فخر وغبطة مرافقة حبيبه وصاحبه ﷺ مهما كانت النتائج

---

(١) التوبة : ٤٠

والمخاطر التي يصطدم بها في هذه المجابهة بين ثلاثة رجال عُزّل . وبين فريق من الشباب الأشداء الأقوياء وهم مسلحون ومعهم أيضاً الطبيعة الوعرة المسالك .

يؤثر الصدّيق الرحلة مع محمد ﷺ لأنه يحب محمداً ودين محمد أكثر مما يحب الحياة بدون هذا الدين الحنيف .

وقد التقى النبي ﷺ وصحبه يقاتل قريش في عدة غزوات ومعارك حربية . لم يتخلف أبو بكر عن واحدة منها ، اشترك في غزوة بدر أول لقاء بين المسلمين والكفار وكان الكفار أكثر عدداً ، وأقوى عُدّة ، كانوا في جيش به زهاء ألف مقاتل ، وجيش المسلمين نحو ثلث هذا العدد ، فكان الصدّيق بجوار الرسول ﷺ في ذلك العريش الذي يدير منه المعركة ، ودعا الرسول ربه فكان قول الله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (١) .

ثم أخذت قريش تفكر في إعداد عدة قتالية هائلة لتثأر من المسلمين لما أوقعوه بها من هزيمة منكرة في وقعة بدر .

ولم يمض وقت طويل حتى كانت أحد ، وكادت الهزيمة تحيق بالمسلمين في بداية المعركة حيث خالف الرماة من المسلمين أمر قيادتهم العليا ، كما كان خالد ابن الوليد يحارب في صفوف المشركين ، وأحدقت جيوشهم بالنبي ﷺ والتف حوله نفر من شجعان المسلمين ، وذوي البأس منهم ، والذين يؤمنون بأن رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ، هؤلاء الأبطال كان منهم أبو بكر الصدّيق ، وأشدهم قرباً من رسول الله ﷺ ، وأكثرهم خوفاً عليه ، وأقربهم مشورة له حتى تحوّل مجرى القتال لصالح المسلمين ، ثم تم لهم النصر في نهاية الموقعة بفضل الله ، وقوة عزيمتهم ، وصادق إيمانهم ، وحسن صبرهم وثباتهم .

ومن ذلك اليوم أصبح أبو بكر أكثر ملازمة للرسول ﷺ في الحرب والسلم وما تم مع اليهود في المدينة ، وفي وقعة الخندق ، وصلح الحديبية ، وفتح مكة ، وهو

(١) الأنفال : ٩

يجابه مع الرسول ﷺ بنفسه وماله قوة قريش وطغيانها ، وهو مطمئن النفس ، مستقر الفؤاد . حتى عاد أسامة بن زيد من الجرف ، وقد عسكر به قُرب المدينة إلى بيت النبي ﷺ في بيت أم المؤمنين عائشة ليطمئن على الرسول ﷺ في مرضه ، فوجد أسامة أبا بكر بجوار النبي ﷺ حتى هدأت الحمى ، وخرج أبو بكر الصدِّيق ، وذهب أسامة إلى الجرف مرة أخرى لكي ينطلق بالجيش إلى الروم كما أمره رسول الله ﷺ ، لولا أن عاود الرسول المرض مرة أخرى فبقى أسامة بجواره وبينما أبو بكر بالمسجد ، أصدر إليه الرسول أمره بأن يصلي بالمسلمين وهو الرجل الرقيق الأسيف فكيف يقوى على الوقوف في مكان رسول الله ﷺ ؟ ولكن النبي يؤكد عليه بأن يُصَلِّي بالناس ، إنه أمر من أمور الدين ، إنها الصلاة عماد الدين يُحَمِّل النبي أمرها للصدِّيق فيصلي بالمسلمين ، وكلهم يدعو للنبي بالشفاء ، ويطيل الدعاء ، ثم يهرع عليّ بن أبي طالب ، وعمه العباس إلى فراش النبي ويبقيان بجواره حيث أسلم الروح إلى خالقها ، واختار جوار ربه ، فاضطرب المسلمون واشتدت أحزانهم ، وفيما يروي عن عمر بن الخطاب بأنه قال : إنه أهون عليَّ أن أقطع أيدي وأرجل من يزعم بأن محمداً قد مات من أن أسمع هذه المقالة . فلم يتخيل عمر بأن النبي يموت ، أو هو تحت تأثير صدمة النبأ .

موقف عصيب ، رهيب ، اهتزت له كل القلوب ، ولم يجابه الصدِّيق من يوم أن أسلم أشد من هذا الموقف هولاً ، وقد حزن ولكن حزنه وألمه حزن المؤمن الصادق الإيمان فتذكر أن عقب حجة الوداع أنزل الله تعالى قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ [1] .

وأقدم أبو بكر من السُّنح ، فتوجه إلى الرسول ﷺ ، وكشف عن وجهه الكريم ، وقبَّله وهو يقول : « ما أطيبك حياً ، وما أطيبك ميتاً » ثم توجه إلى المسلمين وهم بالمسجد فقال كلمته الخالدة المتواترة : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .

---

(١) المائدة : ٣

ثم قرأ أبو بكر قول الله من سورة آل عمران : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ ، أفَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

وهنا وجم الناس ، وهدأ عمر ثم سكت واستكان على هلع ، لم يجابه الصدِّيق أشد من هذه اللحظة ألماً ، ولا أكبر من هذا الموقف رهبة . وماذا يفعل والله غالب أمره !!

وانطلق إلى الأنصار يناقشهم ، ومعه من المهاجرين عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح في أمر المسلمين بعد رسول ﷺ وهو يضع نُصب عينيه المصلحة العليا للمسلمين ، وانتهى الحوار والشورى بأن بايع المسلمون المهاجرون والأنصار أبا بكر بالخلافة فتحمل الأمر ، وقد زادت مشقته وألقى في الناس دستوره الذي قال فيه : « أيها الناس ، إني وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ... ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق منه ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق له ... أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » .. كلمات قصار ، ولكنها محتوى دستور عادل شامل ، تستريح له النفوس السوية ، وتستقر له القلوب الطيبة التقية . إنه دستور أتعب به أبو بكر من يجئ بعده كما قال في ذلك الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولم يمض على وفاة الرسول ﷺ زمن طويل حتى جابه خليفة رسول الله أبو بكر الصديق أشد موقف وهو خليفة للمسلمين ، جابه المرتدين فقد منعت كثير من القبائل الزكاة مثل عبس ، وفزارة ، وذبيان ، بل وبعض بطون بني تميم ، وادعي نفر النبوة مثل مُسيلمة الكذَّاب والأسود العنسي ، وسجاح بنت الحارث ، ولقيط بن مالك في عُمان . فشبه الجزيرة العربية هائجة مضطربة ، والنفوس التي لم يستقر فيها الإيمان متمردة ثائرة على دفع الزكاة فتراها جزية

(١) آل عمران : ١٤٤

كانت تُدفع للنبي دون سواه ، وبعضها يرفض الزكاة والصلاة . ثورة ضد الإسلام تواجه الخليفة الأول أبا بكر الصدِّيق ، فيجمع كبار الصحابة ، وقادة الرأي ، وأهل الشورى فيرى فيهم دعوة للمهادنة لهؤلاء الثائرين ، وهو الرحيم الهادئ الرزين يعلن مجابهة هؤلاء المتمردين دفعة واحدة ، فاختار أبو بكر قادة الجيوش ، ووزع الجند ، وحدد الجهات التي ينطلق إليها كل قائد وجيشه ، ومتى ينضم إلى غيره من القادة مثل الجيش الذي وُجِّهَ إلى بني أسد بقيادة خالد ابن خويلد ، وأمره عندما يفرغ منهم أن يسير إلى مالك بن نويرة زعيم بني تميم في البطاح . وبدا أبو بكر قائداً محنكاً ، ذا بأس شديد على غير ما يُعرف عنه من رقة ودعة ، إنه يتحمل التبعة ولعل ذلك كما « يرى عباس محمود العقاد » - في عبقرية الصديق - كفيل بأن يبدل أطوار النفوس . إنه يتحمل التبعة ، والمسئولية عند الصدِّيق أمر عظيم .

وسارت جيوش المسلمين إلى أهدافها المحددة ، وتحت قيادتها المختارة من قِبَل خليفة رسول الله حتى تم لها النصر ودانت شبه الجزيرة العربية بدين الله الواحد القهار . فهدأت نفس الصدِّيق خليفة رسول الله ﷺ .

وبينما كان يُعد الجيوش لقتال المرتدين ، وتأديب المتمردين لم ينس لحظة بأن رسول الله ﷺ قد أصدر أمره قُبيل وفاته بأن يُتوجه إلى بلاد الروم . وأصر على أن يســـير أسـامة بجيشه يُنَفِّذُ ما حدده له النبي ﷺ . ولم يستجب أبو بكر الصدِّيق للذين طلبوا منه تأجيل بعثة أسامة حتى يفرغ من المرتدين ولكن كيف يستطيع أحد أن يُقنع أبا بكر بأن يؤجل أمراً أصدره رسول الله ﷺ ؟ فقال الصديق رضي الله عنه : « والله لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ . ولن أرد قضاءً قضى به ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته » .

لم يستجب أبو بكر الصديق للذين طلبوا إرجاء بعثة أسامة ، كما إنه لم يوافق الذين اقترحوا عليه أن يستبدل بأسامة بن زيد رجلاً من المسلمين أكبر منه سناً ، وأكثر تجربة .

فكان رد الصديق على هؤلاء : « أيستعمله رسول الله وأنزعه » ؟؟ ، ثم تقدم إلى أسامه الذي لم يبلغ العشرين من عمره واستأذنه في أن يستبقى له عمر ابن الخطاب معه في المدينة .

موقف شديد عصيب يجابهه الصدِّيق إذا عرفنا بأن زيد بن حارثة والد أسامة هذا القائد الصغير من بني كلب ، ولكنه اختطف أسيراً في غارة من بني القين على عشيرته ، ثم عُرض للبيع في سوق الرقيق ، فاشتراه كعب بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، التي أهدته إلى « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » ﷺ عند زواجه منها . وكان من السبَّاقين إلى الإسلام ، واستشهد في إحدى الغزوات على الروم ، وأنجب زيد بن حارثة ابنه أسامة ذلك القائد المسلم الصغير الذي قاد بعثته ، وعاد بجيشه دون أن يفقد رجلاً واحداً من جنوده ، وقد أدى مهمته كاملة بتأمين حدود الدولة الإسلامية .

لم تترك التبعات الخليفة الأول للمسلمين أن يهدأ ، فعندما عادت الجيوش التي أخمدت حركة المرتدين رأى الفاروق عمر بن الخطاب أن عدداً كبيراً من حفظة القرآن قد استُشهد في هذه الحروب ، ففاتح أبا بكر في أمر جمع القرآن ، وناقشه طويلاً ، وتردد أبو بكر في أول الأمر . فكيف يفعل أبو بكر شيئاً لم يفعله الرسول ﷺ ؟ واستمر الفاروق عمر يحاوره ، ويناقشه حتى اقتنع بهذا الأمر ، ودعا زيد بن ثابت الأنصاري ، ورسم معه خطة جمع القرآن ، ويستعين بالحفَّاظ وكُتَّاب الوحى . حتى جمع القرآن في مصحف واحد عهد به أبو بكر الصدِّيق إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ليُحفظ عندها .

إنه أمر عظيم ، وموقف جد خطير أن يُقْدِمْ أبو بكر على عمل لم يقم به رسول الله ﷺ ، وأي أمر هذا ؟ إنه جمع القرآن الكريم دستور الإسلام الخالد . ولكن الصدِّيق يُقْدِمْ على الموقف بعد اقتناع ليسجل في التاريخ ذلك العمل العظيم .

ولم يخلد أبو بكر الصدّيق إلى الراحة بعد أن دانت شبه الجزيرة العربية للإسلام بالطاعة والولاء في مجابهة غير متكافئة حيث جيوش المسلمين أقل عدداً ، وجيوش كفار العرب أكثر عُدّة . برغم هذه المشقات أراد الصدّيق أن يُؤَمِّن حدود الدولة الإسلامية مع الروم فقابلت جيوش المسلمين هؤلاء الروم في وقعة أجنادين ، كما التقت مع الفرس في موقعة ذات السلاسل . ولم تكن مجابهة هذين العدوين بأقل من مواجهة المشركين في شبه الجزيرة العربية ، ولكنه الواجب نحو الإسلام يؤديه المسلم الأول ، والخليفة الأول لرسول الإسلام مهما كانت التبعات ، أو بلغت المشقات أينما كانت المجابهة ، وكيفما جاءت بها الظروف والمواقف فلن تجد أبا بكر الصدّيق على غير ما تجد عليه المؤمن المجاهد الصابر ، والقائد الحكيم الحازم المثابر .

فيقدم الرجل العظيم أبو بكر الصدّيق الأعمال العظام عندما يواجه المواقف الشداد منذ أعلن إسلامه إلى أن لاقي ربه راضياً مرضياً .

* * *

جزاء عادل

عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال : « أنت عتيق الله من النار » .

(حديث شريف)

لم يكن أبو بكر الصدّيق يجهل ما ينتظره من متاعب لحظة بادر يعلن إسلامه متحدياً قومه وقريش كلها . ولكن العقل يتطلب ذلك العمل . كما إنه كان يعرف جيداً ما يتطلبه منه هذا الدين الجديد من تبعات ومشقات مادية ومعنوية ، ولكن هذا هو الواجب .

ولم يكن يعرف أبو بكر الصدّيق بأن هذه التبعات ، وتلك المشقات وما خاضه مع الرسول ﷺ وهو يلازمه من معارك وغزوات ، ثم مصاحبته في الهجرة من مكة إلى المدينة أنه ينجو من كل هذه المواقف والشدائد ذات المجابهات القاسيات ولكنه الإيمان بأن لكل أجل كتاب ، وبرغم كل ما في هذه المواقف من مخاطر تستمر الحياة بالصدّيق إلى أن يرحل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ويترك هذه الحياة الدنيا ، وقد علّمَ المسلمين كثيراً من المبادئ والقيم وأتم الله عليهم رحمته بإتمام نزول القرآن الكريم ، وكان أبو بكر الصدّيق أكثرهم ملازمة لرسول الله ﷺ فأصبح أوفرهم علماً وأكثرهم تجربة ، وأقدرهم تحملاً للتبعات فتولى حمل المسئولية بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ . وهذا قدرما كان الصديق يرجوه . فأقدم غير هيّاب ولا وجل يواجه المرتدين ، كما واجه الفرس والروم ، وغير ذلك من المواقف الشداد . لأن التبعة فرضت عليه ذلك وهو قد تعلم من محمد ﷺ : « بأن المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف » . فكيف لا يكون الصدّيق قوياً ؟ يبذل الصدّيق كل ماله من أجل الإسلام ، لأنه يعلم بأن المؤمن ليس يملك شيئاً أعز عنده من الله ، ورسوله ، فكيف لا يجود الصدّيق بماله ؟

وهذا هو أبو بكر الصدّيق في موقعة بدر الكبرى يبارز ابنه المشرك ، والصدّيق يحرص على قتله لأنه على الباطل وثنى ، غير مسلم ، وها هو ذا يقاتل المسلمين ورسولهم . نعم .. يحرص على قتله برغم إنه ابنه . سبحان الله ..أي رجل هذا الذي ينتصر للحق من الباطل ، ولو كان قتل ابنه ؟ . ألا تخاله ينضوي تحت لواء الذين قال الحق تعالى فيهم في سورة الواقعة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ؟ [1] .

نعم .. لأن ذلك الجزاء العادل ، ومن أعدل من الله ، وأرحم واوفي بالجزاء الطيب قال تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

هل من يقرأ تاريخ الصديق ، ويستقرئ أعماله يجده بعيداً عن المشار إليهم في قول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ؟ [3] .

هذا هو أبو بكر الصدّيق الذي لم يكن يهمنا في عرض هذا الجزء من سيرته بأن يعرف القارئ بأنه كان أبيض الوجه ، ضعيف العارضين ، أحدب ، غائر العينين . كما وصفته عائشة بنت أبي بكر . بينما يهمنا أن يعرفه القارئ بأنه كما قال عنه ابن عباس رضي الله عنه : « كان خيراً كله ، على حدة كانت فيه » .

وفيما يروي عن أبي ذر الغفاري في « الرياض النضرة في مناقب العشرة ».

قال : دخل رسول الله ﷺ منزل عائشة رضي الله عنها فقال : يا عائشة .. ألا أبَشّرك ؟ قالت : بلى يارسول الله . قال : « أبوك في الجنة ورفيقه إبراهيم » .

وفيما هو ثابت في صحيح الترمذي : لقد روى الترمذي والنسائي والبغوي عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعلي في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ،

---

(1) الواقعة : ١٠ - ١٢ (2) الواقعة : ٢٤

(3) الزمر : ١٨

وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح في الجنة » .

وفيما يروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال : « أنت عتيق الله من النار » ، قالت : فمن يومئذ سُمِيَ عتيقاً .

وفيما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال لأبي بكر : « أنت صاحبي على الحوض ، وصاحبي في الغار » .

فإذن .. لأبي بكر فضل السبق إلى الإسلام .

كما له أيضاً فضل صحبة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام في هجرته من مكة إلى يثرب .

وله أيضاً فضل التضحية في سبيل دين الله . ذلك كله ما تجده فيما رُوِيَ عن رسول الله ﷺ : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر ، فإن عندنا يداً يكافئه الله به يوم القيامة » .

وفيما رواه أبو داوود عن النبي ﷺ : « إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » .

فما أكرم الصدِّيق ! وما أجمل الجزاء من الله الكريم .

* * *

الثاني : عمر الفاروق

• عمر في الجاهلية :

وَمَنْ لَمْ يَذدْ عَنْ حَوْضه بسلاحه
يُهْدَمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِم النَّاسَ يُظْلَم

كادت دار « الخطاب بن نفيل » العدوي القرشي تطير فرحاً يوم ولدت حنتمة بنت هاشم بن المغيرة وليدها الجديد « عمر » ، فقد ترقبت دار « الخطاب بن نفيل » ذلك الوليد طويلاً ، كما كانت كغيرها من ديار المجتمع الجاهلي في مكة وكل شبه الجزيرة العربية تفرح بقدوم الولدان من الذكور ، فكانت القبيلة ترى فيهم عزها ومجدها ، وحماة مآثرها ، وإنهم الذائدون عن حياضها إذا اعتدى عليها المعتدون . فكيف لا يهنئ الخطاب زوجته « حنتمة » وقد أنجبت « عمر » فهنأها ، ثم قَبَّل طفله مداعباً ومناغياً وهو سعيد به ، قرير العين بتهنئة القوم له بذلك القادم السعيد .

وكلما تقدمت الأيام بـ « عمر » وضحت سـمـاته ، فكان أبيض اللون مُشرباً بحمرة ، كما كان طويلاً فارع الطول ، قوياً مفتول الساعدين ، إذا مشى أسرع . ويستمر ابن سعد يروي ذلك في طبقاته قائلاً : وكان أعسر أيسر . ومما يورده هنا : فإذا رجل قد علا الناس ثلاثة أذرع ، قيل من هذا ؟ قيل : عمر بن الخطاب . وقد تعلَّم عمر بن الخطاب القراءة والكتابة في ذلك المجتمع الجاهلي الذي يكاد الذين يقرأون فيه يُعرفون بين الناس جميعاً حتى أن بعض الباحثين يرونهم دون العشرين في المجتمع المكي كله .

وقد تركت هذه البيئة القاسية ، شديدة القسوة ، بصماتها في طبيعة عمر بن الخطاب فكان غليظاً ، فظاً ، جافاً ، وكان قوياً ، فيه صرامة ، وقد يكون أيضاً ورث شيئاً غير قليل من هذه الصفات من أبيه الخطَّاب وبخاصة الغلظة والجفوة

البدوية والحدة في الطبع . وقد عمل عمر بن الخطاب في فتوته وشبابه برعى الغنم ، فقد رعى غنم الخطاب أبيه .

وكان في جاهليته هذه يشرب الخمر ، ويُسرف في ذلك ، كما كان يحب اللّهو والطرب ، ويميل إلى النساء ، ولا ينكر المجتمع الجاهلي شيئاً من ذلك .

وكان يحب الذهاب إلى عكاظ ، ليسمع الشعر ، ويطرب للشعراء ، وكثيراً ما أثنى على زهير بن أبي سلمي في الجاهلية ، وبعدها . كلما سمع قوله :

الحَـقُّ مَـقْطَعُهُ ثَـلاثٌ يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَو جَلاءُ

كما كان عمر فارساً قوياً ، ومصارعاً شديد البأس ، قوى البطش ، إنها القوة الغاشمة العمياء ، قوة المجتمع الجاهلي .

وقد أوسع عمر بن الخطاب في جاهليته المسلمين ضرباً ، وتنكيلاً وتهجماً عليهم ، وإهانة لهم . وبرغم هذه الإهانات فقد كان النبي ﷺ كلما رأى عمر بن الخطاب ، أو أبا جهل بن هشام قال : « اللّهم اشدد دينك بأحبهما إليك » فشدَّ اللّه دينه بعمر بن الخطاب بعد ذلك .

وقد بلغت قسوة عمر بن الخطاب بأن كان مرة يجلس حول الكعبة فعيَّره أحد الجالسين بمولودة له . فقام ناهضاً ، وانطلق إلى داره ، وأخذ طفلته البريئة إلى بطحاء مكة ، وحفر لها حفرة في الرمال ، وألقى فيها بالطفلة ، ثم أهال عليها الرمال . أرأيت قلباً أقسى من هذا ؟ وهل عرفت غلظة وشدة فوق هذه الغلظة ؟ وهل تعجب إذا سمعت أنه أهان المسلمين ؟ إنه قوي ولكن قوته مدمرة مخربة ، طاغية غاشمة ، لا تعرف غير رضا النفس الأمَّارة بالسوء ، قوة تخبط خبط عشواء .

هذا هو عمر بن الخطاب في الجاهلية : جاهلي جلف ، غليظ الطبع ، يُسرف في الظلم والضلال ، ولكنه دستور الحياة في هذه البيئة ، يشرب الخمر ويعبها عباً ، ولكنه يفعل ما يفعله معظم الناس ، يدفن ابنته حية ولكنها عادة انتشرت بين كثير من القبائل العربية . إنه قوة ، ولكنها طاغية مدمرة ، إنه جرئ شجاع ولكن على غير الحق . إنه يتيه في ظلماء الجاهليه وظلماتها . كان ذكياً فطناً ولكنه ذكاء يدمر صاحبه .

* * *

الفاروق عمر في عهد النبي ﷺ

« كان رسول الله ﷺ إذا رأى عمر بن الخطاب ، أو أبا جهل بن هشام ، قال : اللهم اشدد دينك بأحبهما إليك . فشد الله دينه بعمر بن الخطاب ».

(حديث شريف)

عرفنا كيف كانت قسوة عمر على المسلمين ظالمة عاتية ، ولما رأى تمسك هؤلاء القوم بدينهم ، وفرارهم إلى الحبشة وغيرها ، ويتركون وطنهم وأموالهم وأهلهم من أجل النجاة بدينهم . أثار ذلك الدهشة والحيرة عند عمر بن الخطاب ، كما لعله أثارها أيضاً عند غير عمر من أهل الذكاء والفطنة . وقد عرفنا أيضاً عن عمر الحدة في الطبع ، والجرأة ، والإقدام .. فقد اتخذ قراراً فردياً بأن الأمر ينتهي بقتل « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » ﷺ ولا شئ غير ذلك يحسم الموقف كما قرر عمر ، فتوشح بسيفه ، وانتضى رمحه ، وانطلق إلى دار « الأرقم بن أبي الأرقم » حيث يجتمع المسلمون عند الصفا . ينفذ قراره هذا .

انطلق « عمر بن الخطاب » إلى الصفا يريد « محمداً » ﷺ ، وبينما هو في طريقه لقيه عربي يقال له « نعيم بن عبد الله » فقال له : أين تريد يابن الخطاب ؟ قال : أريد محمداً هذا الصابئ المرتد عن دين آبائه وأجداده الذي فرّق شمل قريش ، وعاب دينها .. أريد أن أقتله .

فقال له نُعيم : لقد غرتك نفسك يا عمر . هل ترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض ، وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال عمر : وأي أهل بيتي ؟ فقال صاحبه : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

فرجع عمر ، وعرج على بيت أخته فاطمة وزوجها . وعندما اقترب من الباب سمع هينمة لا يعرفها فقد كان خبّاب بن الأرتّ يقرئهما شيئاً من القرآن الكريم من سورة « طه » .

ولما سمع صوت عمر اختبأ خبّاب ، وأسرعت فاطمة إلى الصحيفة فأخبأتها . فلما دخل عمر قال : ما هذا الذي سمعت ؟ قالت فاطمة : ما سمعت شيئاً . قال عمر : بلى ، والله لقد أعلمت أنكما تابعتما محمداً على دينه . ثم بطش بسعيد بن زيد . فثارت الثورة الخطابية في فاطمة ، واندفعت تكفه عن زوجها. فاحتد عمر ، فضربها فشجها . فلما بلغ الأمر هذا الحد قالا له : نعم أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله وافعل ما بدا لك . ثم تناول عمر الصحيفة وأخذ يقرأ فيها ، وأمارات الندم تبدو على وجهه ، وأخذ يتأمل الدم في وجه أخته فاطمة . فقالت فاطمة بنت الخطاب - وهى ألمعية ، قد ورثت الذكاء ، كما ورثت الحدة والعنف أيضاً مثل عمر : كنا نخشى على الصحيفة منك يابن الخطاب . فلما قرأ عمر شيئاً من الصحيفة . قال : ما أحسن هذا الكلام . وهنا خرج خبّاب من مخبئه وقال : يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه . فإني قد سمعته أمس وهو يقول : « اللّهم أيد الإســلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر !!

ثم قال عمر : دلني يا خباب على « محمد » حتى آتيه فأسلم .

فسار عمر إلى دار « الأرقم بن أبي الأرقم » بالصفا . فلما وصل الدار ذُعرَ المسلمون وقالوا : عمر بن الخطاب يا رسول الله متوشحاً سيفه . فأمر النبي ﷺ بأن يدخل ، فأذنَ له . ونهض له رسول الله ﷺ ، فأخذ بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال له : ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة !!

فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأؤمن بك رسولاً ، وبالله رباً ، وبما جاء من عنده . فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم .

هذه أشهر الروايات ، وأكثرها تواتراً في إسلام عمر أوجزتها مركزة كما أوردها محمد حسين هيكل في كتابه « الفاروق عمر » . وقد وردت في عدة مراجع ومصادر أخرى باختلافات غير جوهرية ، فما أروع القرآن تأثيراً في النفوس .

وفيما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما : لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى جبريل عليه السلام النبيَ ﷺ فقال : « يا محمد ، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر » . نعم .. عمر قوة سيكون للإسلام فيها شأن عظيم .

وفي أغلب الأقوال ، وأكثرها تواتراً بأن عمر كان في السادسة والعشرين من عمره عندما أعلن إسلامه ، أو قَريباً من ذلك : جرأة ، وفتوة ، وقوة إيمان .

وعندما استقر الإيمان في قلب عمر ، شعر بأن عليه ديناً ينبغي مبادرة الوفاء به ، فإنه قد ظلم المسلمين كثيراً فطلب أن ينالوا حقهم منه . إن ذلك طبيعة النفس القويمة السوية إذا مسها الخير ، وعمَّرها الإيمان . ولم يستمر إسلام عمر طويلاً حتى قال للنبي ﷺ : أنحن على حق يا رسول الله أم هؤلاء القوم ؟ فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : نحن .

فقال عمر : إن متنا أوحيينا ؟ . قال رسول الله ﷺ : نعم .

فقال عمر : فلماذا لا نعلن أمرنا . وأعلن إسلامه ، وتحمَّل أذى كفار قريش، وبطشهم . حتى أشفق أحد أخواله فأجاره . ولكن عمر رد جوار خاله عليه . لأنه يريد أن ينتصف منه الذين ظلمهم ويتحمل من أجل إيمانه .

إنها نفس الحر الأبي ، والعربي القوي الأصيل ، والمؤمن صادق الإيمان قوي القلب ، ثابت الجنان ، راسخ الإيمان . وفي كل ذلك يوجه النبي عليه الصلاة والسلام عمر وقوته وصلابته إلى الحق ، وفي الحق .

ويشتد أذى الكفار للمسلمين في مكة ، فيهاجر المسلمون بدينهم فراراً من أذى قريش وطغيانها إلى يثرب في سر واختفاء عن عيون المشركين ، حيث قد سمح لهم رسول الله ﷺ بذلك . فماذا يفعل عمر ؟

ولكن نفس عمر تأبى أن يهاجر في خفية ، فتوشح سيفه ، وانتضى رمحه ، وأعلن موعد هجرته قائلاً : من أراد أن يُوتم ولده ، أو تُرمل زوجه ، أو تثكل أمه فليلقاني وراء هذا الوادي !!

ولم يتبعه أحد لأن كلهم يعرف قوة عمر ، وبأسه ، فمن يتبعه ؟!

ويهاجر عمر ، ويجتمع المسلمون في المدينة بقيادة الرسول ﷺ ، ويكاد عمر يلازم محمداً ﷺ ملازمة دائمة ، ويشاوره كغيره من الصحابة ، إلا أن النبي ﷺ كان يعتز برأي عمر ، وليس أدل على ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام : « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » .

ويقوي المسلمون في المدينة ، وتبدأ الغزوات ، والناس في مكة والمدينة يتحدثون عن هجرة عمر في شجاعة وجرأة غير غريبتين على عمر بن الخطاب .

ولم يترك عمر بن الخطاب رضي الله عنه غزوة إلا وشارك فيها ، وأبدى شجاعة وإقداماً ، وفي وقعة بدر أشار على النبي ﷺ بقتل هؤلاء الأسرى ، لأنهم رؤوس الكفر ، وصناديد قريش ، وأيد الله ما قال عمر وارتأى . ولم تكن شجاعته وإقدامه في أحد ، والخندق إلا مثالاً يُحتذي .

وفي صلح « الحديبية » رأى عمر بأن النبي ﷺ قبل أقل مما ينبغي ، ورضي بما لا يقنع عمر ، فأخذ عمر يتردد على أبي بكر ويسأله عن السبب حتى سأل محمداً ﷺ . فقال عليه الصلاة والسلام له : يابن الخطاب ، إني رسول الله ، ولن يضيعني ربي أبداً . فصمت عمر وعرف أن لكل إنسان حدوده وأبعاده . واستبان له ما استغلق اليوم يوم فتح مكة . نعم إذا كان الآمر محمداً ﷺ فلا بد أن يطيع عمر .. إنه التزام الإيمان .

ولما اشتد المرض برسول الله ﷺ كان يبدو على عمر القلق والألم والجزع والهلع ، فلم يلذ له منام ، ولم يحلُ له طعام ، ولا طاب له شراب ، ولا شعر بحلاوة أنس ، ولا لذة سمر . ولما أبلغ نبأ وفاة النبي ﷺ بلغت به الحدة منتهاها ، واشتاط عمر غيظاً وحدة فامتشق سيفه ، وأنذر كل من يردد أن النبي ﷺ

مات ، بأن بتر رأس من يقول ذلك أهون عنده من أن يسمع هذا النبأ .
وكان يقول : إن ما فيه النبي غيبة سيعود بعدها . واستمر يغلي هائجاً حتى التقى به أبو بكر الصدّيق فهزّه هزاً شديداً ثم تلا عليه قول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [1] .

هنا هدأت نفس عمر ، وتنبه للموقف ، وبدأ يجمع كيانه ، وتهدأ ثورته وغليانه . وسرعان ما لوى الإيمان عنان ثورته العارمة ، وعاد إلى رشده فأسلم الأمر لصاحب الأمر سبحانه .

هذا هو عمر في عهد النبي ﷺ ، كانت قوة ضارية ، ظالمة ، تثير الرعب ، وتملأ المكان فزعاً ، والنفوس هلعاً ، قوة طائشة . فتناول الإسلام هذه القوة ، وأحسن تقويمها ، وأجاد توجيهها فأصبحت قوة خيّرة بنّاءة تعطي العمار ، وتمنح الأمن والأمان ، وتشيع الاطمئنان . قوة تكمن في عظمة الإسلام ، وتوجيه رائد ، وقيادة حكيمة رشيدة ، أخرجت عمر بن الخطاب - وغير عمر - من الظلمات إلى النور . فما أكرم وأرحم الله تعالى بخلقه ، وما أعظم إنسانية الإنسان في محمد عليه الصلاة والسلام ، يقود صُحبه عليهم رضوان الله تعالى . وها هو ذا الدليل في عمر بن الخطاب فقد تحوّل على يد الرائد والقائد خلقاً جديداً .

وما أجدر بالناشئة من أبناء العروبة والإسلام - بل والإنسانية كلها - أن تجد أعمالاً قد أعدها الذين يعنون بالنشء تربية وتعليماً وإعلاماً ، إعداداً شائقاً جذاباً محبباً إلى نفوس النشء ، يجدون فيه القدوة الحسنة حتى يكونوا أقوياء قوة خيّرة بنّاءة .

* * *

(1) الزمر : 30.

الفاروق في عهد الصِدِّيق

قال ﷺ : « وأمـا وزيـراى من أهل الأرض :
فأبو بكر وعمر » (من حديث شريف)

كانت ملازمة الصدِّيق والفاروق لرسول الله ﷺ قوية ، فنالا منه خيراً كثيراً ، وتعلما منه عَلماً نافعاً مفيداً . ومن يتأمل حياتهما بجواره يراه وكأنه يعدهما لأمر عظيم سوف يتحملانه ، أو كأنهما يقبلان على تبعات عظام فلا بد لهما من التدريب ، والتوجيه لذلك الذي ينظرهما .

وقد رأينا تأثير الإسلام في عمر ، كما لمسنا أثر محمد ﷺ فيه ، وكيف تحول عمر بقوة هذا التأثير ، وفاعلية هذا الأمر إلى قوة خيِّرة بنَّاءة . قوة عمر أصبحت في الحق ، ومن أجل الحق .

ويكاد المتأمل لحياة الفاروق عمر في خلافة الصدِّيق أو معه من يوم وفاة النبي ﷺ . يجد صورة واضحة بين الرجلين العظيمَين في لحظة علمهما بنبأ الوفاة للقائد والرائد والمرشد عليه الصلاة والسلام .

لحظة قاسية قسوة شديدة على نفس الصدِّيق ، قسوتها على الفارروق ، لحظة رهيبة ، يطير لها لب الحليم الحكيم ، وينَزع فيها سلوك الإنسان كل منزع ، لحظة مرعبة ، تُذهل العقول ، عمر يُهدد وينذر كل من يقول : إن محمداً قد مات ، يعلن ذلك ، وهو ثائر ، هائج ، مائج الوجدان ، بينما الصدِّيق يُقَطِّع الحزن نياط قلبه ، ويفت النبأ عضده ، ويُهدد كيانه ، ويُزعزع وجدانه ، ولكنه يُحسم الأمر بقوله : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .

كلمات قصار ، بليغات برغم شدة الأسى وألم المصاب . ثم أتبعها الصديق بقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (١) ، موقف واحد يعشه وزيرا رسول الله ﷺ . يحدد مدى حاجة عمر الفاروق إلى الصدِّيق أبي بكر .

---

(١) الزمر : ٣٠.

وفي الموقف الأول للرجلين العظيمين بعد وفاة النبي ﷺ يتجلى أثر الحكمة الحكيمة في قيادة الصدِّيق للمسلمين بعد النبي عليه الصلاة والسلام .

هَدَّأ الصديق نفس عمر الفاروق ، وانطلق كلاهما وأبو عبيدة بن الجراح إلى سقيفة بني ساعدة حيث الأنصار هناك . والأمر أمر عظيم . إنه مصير أمة ، واستمرار رسالة ، كانت رحمة للبشرية كلها . فخطب الصدِّيق في القوم . ثم اقتنع الأنصار ، وخطب الفاروق فيهم ، ثم بايع الصدِّيق بالخلافة ، وبايع بعده الناس ، حتى تستمر رسالة الإسلام ، حيث لا وحي الآن .

وأصبح أبو بكر الصدِّيق الخليفة الأول للمسلمين ، وكانت ردة القبائل العربية أول الأمور الصعاب التي جابهت الصدِّيق في خلافته ، وعندما جمع الرجال يستشيرهم فكان في إحدى الروايات : أن عمر يرغب في مداورتهم ، ومحاربتهم حسبما أنكروا من الإسلام ، فلم يستجب له الصديق ، وأصر على محاربتهم دفعة واحدة حتى ولو كان الإنسان يمنع « عناقاً - أو عقال بعير » فما كان من عمر إلا أن أطاع ونفَّذ الأمر . إنه الآن أمر من القائد أبي بكر فأول من يطيع عمر . إنه تلميذ محمد ﷺ ، وتأثير الإسلام في النفس العظيمة .

وموقف آخر لعمر بن الخطاب مع الصدِّيق وفي نفس الأثناء تقريباً ، يوم بعثة أسامة حيث يقترح بعض الرجال على الصدِّيق أن يختار من هو أكبر منه سناً ، وأخصب تجربة . فكيف ينقلون ذلك للصدِّيق . ولم يجرؤ أن يُعَبِّر عن رأيهم هذا غير عمر ، فكان رد الصدِّيق : إنه أمر رسول الله ﷺ فكيف يُبَدِّله أبو بكر ؟ فما كان من عمر إلا أن أطاع الأمر .. إنهم المسلمون في قادتهم يُقَدِّمون أمثلة رائعة لأحفادهم والإنسانية كلها .

ويتقدم الفاروق إلى الصدِّيق عقب حروب الردة ، ويناقشة في جمع القرآن . وينظر الصدِّيق في وجاهة رأي الفاروق بأن عدداً كبيراً من حفظة القرآن الكريم قد استشهدوا في هذه الحروب .

فيناقش الأمر ، ويفكر فيه ، ويتدارسه من جميع جوانبه . ثم يستجيب

للفاروق في هذا الأمر ، ويدعو زيد بن ثابت الأنصاري ويعهد إليه بهذه المهمة ، بعد أن يرسم له طريقة العمل ، ويبين له أهمية هذا الأمر .

الصدّيق أبو بكر الهادئ الحكيم ، والفاروق عمر القوي ، يصبحان قوة واحدة من أجل الإسلام والمسلمين . فلما قرأ الصديق قول رب العزة سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [(1)] .

ولم يكن يشغله غير أمر المسلمين من بعده ، فدعا عثمان بن عفان وقال له : اكتب .. وكتب عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ..

هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويؤمن الفاجر ، ويصدق الكاذب .

إني استخلفت عليكم بعدي – عمر بن الخطاب – فاسمعوا له وأطيعوا ، فإن عدل فذلك ظني به ، وعلمي فيه . وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم ، والخير أردت ولا أعلم الغيب » .

وينهي ابن الأثير كلامه في كتابه « أسد الغابة في معرفة الصحابة » بما مضمونه بأن أبا بكر استدعى عمر وأوصاه بالمسلمين خيراً .

وهذا هو عمر الفاروق في عهد الصدّيق قوة بنّاءة ، ورأي سديد رشيد ، وطاعة كاملة للقائد العظيم الصدّيق أبي بكر .. فما أروعك يا عمر !!

* * *

(1) سورة ق : ١٩

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

﴿ وإنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . (المائدة : ٤٢)

لقد رأى القارئ « عمر بن الخطاب » في جاهليته يُعلي من قدر زهير بن أبي سُلمى الشاعر الجاهلي لقوله :

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسلاحِهِ ... يُهْدَمْ وَمَنْ لَمْ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

لأن زهيراً يلخص في بيت واحد دستور الحياة في هذه البيئة القاسية .

بينما الفاروق عمر بن الخطاب ، وقد جعله الإسلام ، وتوجيهات نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام خلقاً جديداً ، وقوة خيِّرة بنَّاءة يُثني على زهير نفسه لاعتبارات أهمها قوله :

الحقُّ مَقْطَعَهُ ثَلاثٌ ... يَمينٌ أوْ نِفَارٌ أوْ جَلاءُ

نعم .. يُثنى الفاروق عمر علي زهير لقوله هذا ، وقد تعلــم القرآن ، ولازم محمداً عليه الصلاة والسلام ، وأبا بكر الصدِّيق عليه رضوان الله تعالى .

وها هو ذا عمر يتولى الخلافة بعد أبي بكر الصدِّيق فيكون دستوره كما تراه في قوله : « أيها الناس ، إني قد علمت أنكم تؤنسون مني الشدة والغلظة ، وذلك أني كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه ، وكان كما قال تعالى : ﴿ بالْمُؤْمنينَ رَءُوفٌ رَّحيمٌ ﴾ [1] . وكنت بين يديه كالسيف المسلول . إلا أن يأمرني أو ينهاني عن أمر فأكف عنه . فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

---

(١) التوبة : ١٢٨

ثم قمت ذلك المقام مع أبي بكر الصدِّيق خليفة رسول الله ﷺ وكان كما عرفتم في رحمته ولينه . فكنت خادمه وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس ، أخلط شدتي بلينه إلا أن يتقدم إليَّ فأكف . فلم أزل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنا به أسعد .

ثم صار أمركم اليوم إليَّ وأنا أعلم إنه يقول قائل : كان يشتد علينا والأمر إلى غيره فكيف به لما صار والأمر إليه ؟ فاعلموا أنكم لا تسألون عني أحداً فقد عرفتموني وخبرتموني ..... واعلموا أن شدتي التي كنتم ترونها ازدادت أضعافاً على الظالم والمعتدي . ولآخذ لضعيف المسلمين من قويهم ، وإني بعد شدتي تلك واضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف ..... فاتقوا الله وأعينوني على نفسي بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم .

ولكم عليَّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها ، لكم عليَّ ألا أجبى شيئاً من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم عليَّ أيضاً ألا ألقيكم في المهالك وألا أحبسكم في ثغوركم .

أيها الناس ... إن الله عز وجل ، قد ولاني أمركم وإني أسأله أن يُعينني عليه ... » هذا هو عمر بن الخطاب كما تراه من أسلوبه .

ويمسك عمر زمام الأمر فيقدم نموذجاً رائعاً واقعياً للحاكم العظيم المؤسس لدولة عظيمة ، ويقف مواقف متعددة في كل منها قدوة طيبة وأسوة حسنة لكل من يتولى رعاية أمر من أمور الناس ، « وكلهم راعٍ وكل مسئول عن رعيته » فحياة عمر الفاروق أمير المؤمنين خصبة الفائدة عظيمة النفع للناس كلهم حكاماً ومحكومين ، وعرض المواقف التي وقفها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كلها في ظل علوم الإحصاء الحديثة يحتاج لمساحة أكبر من تلك المساحة التي استهدفت جلاء الإعجاب بمنزلة عمر التي بها نال بشارته بالجنة فيكفي سرد أمثلة من هذه المواقف العمرية كنماذج إنسانية عظيمة برغم ما فيها من التركيز والإيجاز .

هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يتولى أمر المسلمين ، ويأتي إلى مجلسه أحد أفراد الرعية ويقول له : أنت تعرف أنني قاتل زيد بن الخطاب في يوم اليمامة . فيرد عمر قائلاً : نعم .

فيقول الأعرابي : هل تحبني ؟ فيرد عمر : لا .

فيسأل الأعرابي : هل ذلك يمنعني حقاً من حقوقي ؟

فيرد عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لا .

إنه العدل . العدل بين أفراد الرعية حتى ولو كان مع قاتل أخ الحاكم .

والحاكم لا يحبه لأنه قتل أخاه ، ولكن الحب والكراهية عواطف إنسانية ، بينما الظلم والعدل حقوق أفراد الرعية ، ولن يضيع منهما شيء والحاكم عمر . ولم يقف العربي البدوي عند الحوار السابق بل يقول لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب : ليس يهمني أن تحبني ، إنما يأسي على الحب النساء .

فالعدل مبدأ ، وتطبيقه عند عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فرض بين الرعية .

وفي مصر في عهد أمير المؤمنين وواليها عمرو بن العاص تحدث قصتان كلتاهما تُعَزِّز ما قاله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في حواره مع الأعرابي السابق .

أولى القصتين : بأن صبياً نصرانياً يلعب مع أبناء المسلمين وبينهم ابن الوالي عمرو بن العاص ، ويتشاحن الصبية وهم يلعبون ، ثم يتشاجر اثنان : ابن أحد نصارى مصر ، وابن عمرو بن العاص والي مصر . ويضرب ابن عمرو ابن النصراني قائلاً : خذها من ابن الأكرمين .

وينتظر النصراني . ثم ينتظر . ثم يبلغ الأمر لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيتأتى إليه عمرو وابنه ، والنصراني وابنه .

وتُعرض القصة على مسمع من عمرو . ثم يصدر أمير المؤمنين عمر حكمه بأن يجلو ابن النصراني العصا على صلعة عمرو لأن ابنه قد أقدم على ضربه بسبب

أبيه . فأراد النصراني أن يعتذر عن ذلك حياءً وأدباً . ولكن أمير المؤمنين أصدر أمره ، وقال لعمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

أى عظمة إنسانية هذه ! وأى صورة للعدل هذه !

والقصة الأخرى مع عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص .

فقد احتسى ابن عمر بن الخطاب خمراً ، وسكر ، وأُقيم عليه الحد في غير الموضع الذي يُقام فيه على عامة الرعية . ثم يعلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالقصة . فيرسل إلى عمرو واليه في مصر بما مضمونه :

من أمير المؤمنين عبد الله عمر بن الخطاب .. إلى العاص بن العاص ، لقد علمت شراب عبد الرحمن وأبي سروعة وحلقهما .« أن أرسل عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب على قتْب » .

أى ليس في هيئة ركب عظيم لأنه ابن أمير المؤمنين ، بل على قتْب بعير ، وليس في ركب ابن أمير المؤمنين .

يصل ابن عمر بن الخطاب ، ويُقيم عليه الحد مرة أخري . فيمرض ثم يموت بعد حين . فما أروعك يا عمر وأى قدوة أنت للنشء المسلم ؟! إنه العدل ، كما يراه الإسلام الحنيف ، وطبقه محمد نبى الله العظيم يحاكيه أمير المؤمنين . وفي ظله تستريح النفوس ، وتطمئن القلوب فالحاكم يقيم العدل على الجميع وفي القصاص حياة الجميع .

ويستمر الحديث أيضاً عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص والي مصر ، فقد كتب إليه أمير المؤمنين يقول :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى عمرو بن العاص . سلام الله عليك ، أما بعد : بلغني أنه فشت لك فاشية . من خيل ، وإبل ، وبقر ، وغنم ، وعبيد . وعهدي بك قبل ذلك، أن لا مال لك . فأنّي لك هذا ؟

ولقد كان عندي من المهاجرين الأولين من هو خير منك ، ولكني قلدتك رجاء غنائك . فاكتب إليَّ : من أين لك هذا المال ؟ وعجِّل .

فكتب إليه عمرو بن العاص : ... أما بعد : فإنه قد أتاني كتاب أمير المؤمنين ، يذكر فيه فاشية مال فشا لى ، وإنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي . وإني أعلم أمير المؤمنين أني ببلد السعر فيه رخيص ، وإني أعالج من الحرفة والزراعة مايعالج أهله . وفي رزق أمير المؤمنين سعة . ووالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك .

فكتب إليه عمر :

أما بعد : فإني لست من تسطيرك الكتاب ، وتشقيقك الكلام في شيء ، ولكنكم - معشر الأمراء - قعدتم على عيون المال . ولن تعدموا عُذراً وإنما تأكلون النار ، وتتعجلون العار ، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة . فسلّم إليه شطر مالك .

هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في واحدة من ولايات الدولة الإسلامية كيف يقيم العدل ؟ وكيف يحاسب الولاة ؟ أليس هذا النموذج في العدل طبقه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؟ فالولاة ولاة لا تجاركما يرى عمر الفاروق .

وإذا انتقلنا من مصر إلى اليمن لنروي قصة « جبلة بن الأيهم » ذلك الأمير العظيم الغساني ، الذي اعتدى على واحد من عامة الناس ، فلما أراد عمر أن ينتصف منه لصاحب الحق أبي وهدد بأن يترك وقومه الإسلام ، فأعطى عمر أمير المؤمنين صاحب الحق حقه وقد ارتأى بأن ذلك يُعلي من قدر الإسلام أكثر من بقاء ذلك الظالم وقومه مسلمين ، فانتصف من جبلة بن الأيهم الأمير النصراني فالحق حق دوماً .

ولقد وضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للقضاء دستوراً يتضح من وصايا عمر للقضاة كما في قوله : « آسى بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً

أو حرّم حلالاً ، ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه إلى رشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ... ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ... المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ... وإياكم والقلق والضجر ، والتأذي بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ... الحق يُعَظِّم الله به الأجر » ..

هذا جزء من دستور القضاء يبدو منه كيف يحرص أمير المؤمنين على إقامة الحق ، وسيادة العدل بين الناس . وهذه مكرمة للحاكم دونها الكثير من المكرمات .

وانظر مايقوله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمن يلي القضاء : « إذا تقدم إليك الخصمان ، فعليك بالبينة العادلة ، أو باليمين القاطعة ، وأدن الضعيف حتي يشتد قلبه ، وينبسط لسانه .. وتعهد الغريب ، فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ، ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع حقه ، من لم يرفق به » !

... ما أعظم صورة الإنسانية في عمر !

وقد عنى عمر بتعيين القضاة ، ثم وصايتهم لأن رقعة الدولة في عهده اتسعت ، ولا بد للناس من يفصل بينهم في الخصومات ، كما لايجعل الناس مطمئنة قلوبهم مثل العدل .

ولم يقف عمر أمير المؤمنين أمام النص جامداً ، فمن لم يحكم بما أنزل الله كافر كما يُفهم من قول الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [1] ، وقد يكون ظالماً كما في قوله تعالى من نفس السورة : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [2] ، أو قد

(١) المائدة : ٤٤ (٢) المائدة : ٤٥

يكون فاسقاً كما فى قول رب العزة من نفس سورة المائدة . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [1] .

ولكن عمر قد عفا عن المرأة التي جاءت إليه وهى تعترف بالزنا ولم يقم عليها الحد لأنها أعطت نفسها لذلك الظالم الذي لم يعطها الماء حتى كادت تهلك عطشاً فأعطته ما أراد . ووضع أمام ذلك قول الله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [2] واستشار علياً فبذلك أفتاه فقال عمر : « عليٌّ أفتانا - أو أفقهنا » .. وليس هذا ببعيد عن موقفه من حد السرقة في عام الرمادة سنة ١٨ هجرية حيث اشتد القحط ، وعم الفقر ، وعافت الذئاب الشياه لهزالها ، فرأى عمر كيف يقطع يد السارق الجائع ؟ تنفيذاً لقول الله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ ﴾ [3] .

وفي عام طاعون عمواس بالشام افتى عمر في مسألة الميراث التي عُرِفَتْ بالمسألة العمرية ، أو الحجرية كما يقال عنها أحياناً .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يُقَدِّر عليَّ بن أبي طالب في دقة الأحكام ، وحسن الاستنباط فكان يستشيره في القضاء والحكم كثيراً .

وكان أمير المؤمنين عمر يتفقد أمر رعيته ليلاً ، فقد خرج مرة ليلاً ومعه مولاه سالم . وإذا به يسمع امرأة تبكي ، فاقترب منها ، وعرف بأنها غريبة قد جاءها المخاض . وليس عندها شيء . ثم عاد عمر إلى بيته وقال لامرأته أم كلثوم : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟ وقصَّ عليها الحكاية . فقالت : نعم !! وحمل أمير المؤمنين على ظهره عدل دقيق ، وشيئاً من شحم ، وبعض السكر ، وسار إلى المرأة التي جاءها المخاض . ويقال : إن أبا عبيدة كان يسير معه . فقال له : أأحمل عنك شيئاً يا أمير المؤمنين ؟ فقال أمير المؤمنين : لا . وهل تحمل وزري يوم القيامة ؟ وانطلق عمر إلى خيمة المرأة . وجلست معها « أم كلثوم » .

---

(١) المائدة : ٤٧ (٢) البقرة : ١٧٣
(٣) المائدة ٣٧

يرحمك الله يا عمر . أي رحمة هذه ؟! وأي صورة سامية للإنسانية تلك التي تقدمها في أفعالك ؟ !

وبينما يسير أمير المؤمنين يعس ليلاً . سمع صوت طفل يبكي . فذهب إليه وطلب من أمه أن تُحسن رعايته . ثم تركها وفى الهزيع الأخير من الليل سمع بكاء الطفل ، فذهب إلى أمه وقال لها : إنك لأم سوء ! كيف لا تطعمي ابنك ؟ قالت : إنه يبكي لأني أسكته عن الطعام فيأبى . قال أمير المؤمنين : ولماذا ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم . فقال : ويحك .. لاتستعجلي فطامه . ولما صلى الصبح أمر مناديه : لا تعجلوا بفطام أطفالكم فإن العطاء سيكون لكل مولود في الإسلام .

ثم كتب بذلك إلى الولاة في الأمصار .

ما أروعك يا أمير المؤمنين ! وما أعظم الإسلام حين يُبَدِّل أطوار النفوس ! وما أبَرَّك رائداً ومرشداً وقائداً يا رسول الله !

وهذا عمر أمير المؤمنين يرسل لولاته يقول لهم : « لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحرموهم فتكفروهم ، ولا تجحروهم فتنفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يرعى حقوق الفرد ، ولكنه كان ينظر إلى مصلحة الجماعة .. كان يسير ليلاً يستطلع أحوال الرعية فسمع امرأة تقول :

ألا سبيل إلى خمر فأشربه   أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أشرقت الشمس . سأل عن نصر هذا . وأرسل في طلبه ، فلما حضر نصر بين يديه وجده من أجمل الناس وجهاً ، وأحسنهم شَعراً . فأمره أن يعتم فازداد جمالاً ، وقصَّ شَعره فبدأ أكثر حسناً . فقال أمير المؤمنين : لا يبقى نصر وابن الخطاب في أرض واحدة . وأمر له بمال يصلحه ، ثم سيَّره إلى البصرة .

وهنا يقول المتقولون : وما ذنب نصر في جماله هذا ؟

لا ذنب .. ولكن فتنة النساء ، وفي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام أمر دونه بكثير أن يُنفي نصر أو غيره . فالمصلحة العامة فوق كل شئ .

وهناك قصة في حياة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كثر فيها الكلام بين مفكري العرب وغيرهم من المستشرقين ، هذه القصة موقف أمير المؤمنين من عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش . وهو القائد المسلم الذي لم يُهزم قط . ومتى يُعزل ؟ في أوج مجده ، والمسلمون يحتاجون إليه !

زعم فريق من المستشرقين بأن عمر كان يخشى خالداً ، وقال آخرون منهم : بأنه يغار منه ، وذهب غيرهم بأنهما في سن الصبا تصارعا فصرع خالدٌ عمراً ، ورأى فريق من غيرهم : بأن خالداً قتل مالك بن نويرة ، وبني بزوجته فقدَّم صورة سيئة للإسلام والقائد المسلم . ورأى آخرون : بأن خالداً حقق من الأمجاد والانتصارات ما قد يفتن بعض المسلمين به ، فعزله أمير المؤمنين عـــــمر ابن الخطاب . وقيل في ذلك كثيراً وكثيراً . وعزله حتى لا تكون فتنة به .

ولنا أن نتصور عمر القوي ، والحاكم الغيور ، وتلميذ محمد ﷺ وخليفته الأول الصدِّيق . فأمره مع خالد أنه يجتهد فإذا وُفِّقَ فهذا حسبه ، وإن كانت الثانية فهذا اجتهاده وجهده . وبناء على ذلك يكون زعم من زعم بأن عمر يخش خالداً ، كزعم من قال بقصة مصارعتهما صبيين ، ومثله أيضاً زعم من يزعم بأن عمر يعزل خالداً حتى يتقي ثورته وغضبه على الخليفة ، هذه أقاويل لا تقف على قدمين .

وأجمل ذلك كله في : هل كان عزل خالد لسبب شخصي ؟ أم للمصلحة العليا ؟

سيرة عمر تأبى أن يعزل خالداً ، أو غيره ، لأسباب شخصية . كما تأبى أن يخاف خالداً أو يخشاه . وفيما يُروي بأن رجلاً قال لخالد بعد عزله : الفتنة يا أمير الجيوش ؟ فقال خالد : أما وعمر حي فلا . أليس في ذلك الحسم لزعم خشية عمر لخالد .

والعقل والنقل يؤيد ذلك ، فإن عمر كانت تخشاه الشياطين . فكيف يخشى إنساناً مهما كان في رعيته حتى ولو كان خالد بن الوليد !

وتبقى مقالة فتنة الناس بخالد ، ومقتل مالك بن نويرة وبناء خالد بزوجته ولا سيما بأنه يُقال : بأن خالداً كان يريدها زوجة قبل أن يُسلم . ثم حكاية زهو خالد وإعجابه بنفسه ، وقد رأى عمر ذلك بنفسه من خالد يوم عاد من حروب الردة . فدخل خالد المسجد وفي عمامته السهام .

ذلك كله يتعلق بالعقيدة ، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب لا يترخص فيها ولا يتهاون في أمرها . وكان عمر الفاروق يقترح على الصدِّيق عزل خالد .

وهناك أمر آخر هل قدَّره الذين يناقشون هذه المسألة ؟ ذلك بأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد وغيرهم من أهل زمانهم يفكرون بتفكير عصرهم وبيئتهم ، وذلك غير ما نفكر فيه نحن الآن . ولا ينسى من يناقش هذه المسألة بأن أمير المؤمنين وخالداً صحابيان جليلان ، فعمر يقول عنه رسول الله ﷺ : « جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه » ، كما أن عمر وزير رسول الله عليه الصلاة والسلام . و« خالد سيف الله المسلول » كما يقول عنه رسول الله ﷺ . فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد كلاهما فوق الشبهات والشك . كما أن عزل خالد من قيادة الجيش لا يلجأ منها إلى تكوين حزب يعارض ، ويناوئ الحكومة كما يفعل أبناء هذا العصر ، فكانت أهدافهم واضحة : إعلاء كلمة الله ، ومناصرة الإسلام . وإن المناصب تكليف ومشقة . لا تشريف يعلو به الإنسان ، فكان الميزان ميزان الإيمان لا السلطان .

وكيف لا يكون أمير المؤمنين على غير ذلك وفيه يقول رسول الله ﷺ : « لو نزل عذاب من السماء ، ما نجا منه غير عمر » .

وعندما عيَّن أبو بكر الصدِّيق عمر خليفة على المسلمين ، تقدَّم إليه جماعة من الذين رأوا في خلافة عمر خَوفاً لشدة بأسه وصلابته فقالوا لأبي بكر : يا خليفة رسول الله .. ماذا تقول لربك إذا قدمت عليه غداً ، وقد استخلفت علينا « عمر ابن الخطاب » ؟ فقال أبو بكر : استخلفت عليهم خيرهم .

وأي تعليق بعد قول الصدِّيق هذا !! وإن كان لا بد من التعليق فإن عمر كان يقول ما معناه : لو عثرت بغلة بطف الفرات لشعرت بأن الله يسأل عمر : لماذا لم تمهد لها الطريق ؟

فكم فكَّر عمر ، وكثيراً ما أيَّد الله ورسوله رأيه ! وكم وضع أمير المؤمنين عمر من قواعد وأسس لبناء صرح الدولة الإسلاميـة في مجال وميدان : في الزراعة ، والتجارة ، والعمران ، والجند ، والقضاء ، والعطاء ... حتى تنظيم الصفوف في أثناء الصلاة . أليس هذا بمؤمن فوق الشبهات ؟!

خرج أمير المؤمنين ليؤدي صلاة الفجر فتقدم إليه أبو لؤلؤة فيروز المجوسي وظهر قبالة أمير المؤمنين فطعنه عدة طعنات قضى بها نحبه فى سنة ٢٣ هجرية . رحم الله عمر رحمة واسعة قال رسول الله ﷺ : « ... وعمر في الجنة ، ورفيقه نوح » ، وقال تعالى في سورة الواقعة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ... ﴾ [1] إنه الجزاء العادل ، ومن أعدل من الله تعالى ؟!

* * *

---

(١) الواقعة : ١٠ - ١٢

الثالث : عثمان بن عفان

• عثمان بن عفان – قبل الخلافة :

« أرحم أمتي أبو بكر ، وأشـــدها في دين اللّه
عمر ، وأشدها حياء عثمان » . (حديث شريف)

لا يهمني كثيراً أن يعرف من يقرأ هذه الكلمات عن هذا التقي الورع أن يعرف نسبه كاملاً فيقول : إنه عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف ، وإن أمه هى : أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وليس من المهم كثيراً أن يعرف بأن كنيته « أبو عبد اللّه » أو « أبو عمرو » .

بينما من يعرف بأن عثمان قد وُلِدَ ، ونشأ بالطائف ، وكان أبوه عفّان بن أبي العاص من أكبر تجارها ، ومن أشهر وأثرى تجار مكة – بل وشبه الجزيرة العربية كلها – من يعرف شيئاً من هذا يرى تلك البيئة التي نشـأ فيها « عثمان بن عفّان » فالطائف من أجمل مناطق شبه الجزيرة العربية مناخاً ، وأرقّها هواء ، وأكثرها ودياناً ، وأغزرها مياهاً ، وأخصبها زراعة ، وبرغم ما تكسبه هذه البيئة لأهلها من رقة في أساليبهم غالباً ، ودماثة في أخلاقهم ، وليناً في طباعهم فتجد أبناء هذه البيئات الصافية أكثر من غيرهم تمسكاً بوجهات نظرهم ، واعتداداً بآرائهم ، يتميزون بذلك كما تتميز بيئتهم عما حولها من مناطق أو مواضع أخرى .

وإذا كانت البيئات ذات الثراء الممتد – ولا سيما في زمن الجاهلية – تُكسب أبناءها في أغلب الأحيان النزق ، والطيش ، والغطرسة أحياناً ، وما يشبه ذلك

من الصفات ، يعرف من يقرأ هذا بأن عثمان بن عفّان كان على غير ذلك برغم نشأته ، وتربيته في بيئة ذات ثراء عريض ، ورفاهية وترف غير قليل . فقد كان كريم النفس ، هادئ الطبع ، متواضعاً ، مشهوداً له بالحياء في الجاهلية وفي الإسلام ، يقول فيه النبي ﷺ فيما رواه أنس بن مالك . قال : « أصدق أمتي حياءً عثمان » .

فلم يكن « عثمان بن عفّان » متكبراً ، ولا مغروراً في الجاهلية أو الإسلام . ويعرف من يقرأ عن بيئة « عثمان بن عفّان » أيضاً أن صفاء هذه البيئات في جوها يمنح سكانها غالباً صفاء في الذهن ، واستقامة في الرأي والفكر . ومن هنا يجد تعليلاً مقبولاً ، وتفسيراً مرضياً ، وتبريراً معقولاً بمبادرة عثمان مسرعاً إلى اعتناق الإسلام الحنيف ديناً . فكان واحداً من الخمسة السباقين إلى هذا الدين الكريم .

وقد يعن هنا تساؤل لدى قارئ أو أكثر : فلماذا أساء أبناء الطائف إلى محمد ﷺ رحمة الله إلى العالمين وهو يدعو إلى هذا الدين الحنيف إساءة ستظل عالقه بقلب المسلم إلى ما شاء الله تعالى ؟! يبدو التساؤل وجيهاً ، ولكن عندما يعرف القارئ بأن بيئة مكة وبها الكعبة موضع الأصنام قد عبأت شبه الجزيرة كلها ضد هذا الدين الحنيف ، وضد نبيه الكريم ، وهنا ينبغي أن يُمعن القارئ في اعتراض أبناء هذه البيئة الطائف ، ومحاربتهم للنبي الكريم ، بعض الحصيات والحجارة الصغيرة يلقيها الأطفال والصبيان على ذلك الرسول الحليم الذي أقنعت مكة ، وأشاعت بأنه مسحور أو مجنون وهو يحارب آلهة العرب وأصنامهم ، ويدعو إلى عبادة إله جديد ورب واحد أحد ، فرد صمد ، ليس والداً أو قد ولد . قال تعالى في سورة الإخلاص : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ وهذا عندهم إهانة لأربابهم اللاتي يعبدون ! فبرغم وجود هذا الاعتراض ، وحقيقة هذا الموقف إلا أنه أخف من غيره وطأة ، وأقل من سواه خطورة . وحتى يومنا هذا نجد من يعترض على الدعاة للأفكار الجديدة ، والفلسفات الفكرية المفيدة ، أو السياسية ، أو الفنية .. بأن يلقي

الجمهور عليهم البيض الفاسد أو حبات الطماطم الفاسدة . نرى ذلك اليوم في عصرنا هذا الذي يقال : إنه عصر حرية الرأي والفكر والعقيدة ، فما بالك بأهل الطائف وهم جزء من هذه البيئة العربية الصحراوية البدوية في عصر الجاهلية ؟!

أسلم « عثمان » الثري الحليم مبكراً ، وشهد تلك الحرب الطاغية من قريش للإسلام والمسلمين ، واضطهادها لهم ، وظلمهم أجمعين فأعلن « عثمان » هجرته إلى الحبشة عند ذلك الملك العادل بها حينئذ الذي لم يُظلم عنده أحد ، كما أخبرهم بذلك محمد ﷺ في صحيح الأثر .

ثم هاجر « عثمان » إلى « يثرب » ولم يهتم بثروته وماله وجاهه ، ولكن كان شغله الشاغل كيف يحافظ على دينه الجديد ؟ وكيف يساعد محمداً ﷺ والمسلمين من أجل هذا الدين الحنيف ؟ فأعطى « عثمان » أمواله للإسلام بغير حساب . لقد جهز « عثمان بن عفّان » جيش العُسرة من أمواله الخاصة ، وقال ابن شهاب الزهري في ذلك : « قدّم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً ، وستين فرساً » !! وكم هذه ثروة طائلة في هذا الزمان والمكان !! .

وفيما يقوله حذيفة بن اليمان في هذا المجال : « جاء عثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ في جيش العُسرة بعشرة آلاف دينار صبها بين يديه ويقول : غفر الله لك يا عثمان ما أسررت ، وما أعلنت ، وما هو كائن إلى يوم القيامة » .

وفيما يذكره خالد محمد خالد في كتابه « خلفاء الرسول » (نشر دار الفكر بيروت) يقول عبد الرحمن بن عوف : « شهدت رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان ابن عفّان في جيش العُسرة بسبعمائة أوقية من الذهب » إنه عطاء من يرى ويعتقد بأن الجنة أفضل ، نعم عطاء عثمان . ويكاد الباحث يجد هذا الخبر في كل المراجع والمصادر التي تتحدث عن سيرة ذلك الصحابي الجليل عثمان ابن عفّان ، الكريم المفضال وكم يزهو النقاد في عصرنا هذا . الآن . اليوم . بأن أدب السيرة الذاتية قليل أو نادر في أدبنا العربي وهذا عثمان بن عفّان

يكتب عبارة عن نفسه تحتوي مضموناً تربو عن كتاب كامل من كتب هذه السيرة وتعطي دلالات إيحائية لعادات البيئة العربية في عصر عثمان بن عفّان الذي قال : « ما زنيتُ ، ولا سرقتُ ، في جاهلية ، ولا في إسلام » .

ها هو ذا عثمان بن عفّان في الجاهلية والإسلام ، فكيف لا يزوجه النبي الكريم اثنتين من بناته ؟ ويكون عثمان بن عفّان في ذلك فريداً بين البشر فلم يسبق أن حظى أحد بزواجه من ابنتي أي نبي من أنبياء الله غير عثمان بن عفّان الذي تزوج « رقية » بنت محمد بن عبد الله ﷺ ، فلما ماتت خفف حزن عثمان عليها بأن تزوج أختها « أم كلثوم » فكانت كنيته بـ « ذي النورين » وقد ماتت « أم كلثوم » ورأى النبي عليه الصلاة والسلام حزن عثمان وألمه عليها ، فقال ﷺ : « لو أن لنا ثالثة لزوجناك إياها » .. وهل يحب النبي ﷺ هذا الحب إلا لرجل جدير به مثل عثمان بن عفان ؟ وهل كان الذين يحبهم النبي غير غُرٌ ميامين . انظر عثمان !

وإن يد عثمان بن عفّان على المسلمين جميعاً عندما استقروا في المدينة واحتاجوا إلى الماء فاشترى عثمان « بئر رومة » من ذلك اليهودي الجشع المستغل ، اشتري نصفها عثمان بن عفّان لأنه رأى في رسول الله ﷺ ميلاً لذلك . وكان المسلمون يحتفظون بالماء الذي يأخذونه في يوم عثمان إلى اليوم الثاني الذي يكون ماء « بئر رومة » من حق ذلك اليهودي المادي الذي ما زال يملك نصف هذه البئر .

واستمر عثمان بن عفّان يعطي الفقراء في الإسلام ، كما كان يعطيهم في الجاهلية ، إنه كرم العربي الكريم ، وجود الثري الأصيل . وعطاء عثمان للإسلام ونقراء المسلمين .. كان عطاء فياضاً ، سخياً . إنه عطاء المبدأ والعقيدة ، فعثمان يعلم من النبي ﷺ قوله : « لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع » ، كما تعلّم أيضاً من دستور الإسلام الخالد :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [1] . ولم يكن بخاف

(١) الحجرات : ١٠ .

على عثمان بن عفّان بأن إخوة الإسلام أكبر مساحة ، وأكثر امتداداً في الطول وفي العرض من إخوة النسب . وليس بخاف عليه أيضاً وهو صهر رسول الله ﷺ ومن صحابته ، بأن بذل المال من أجل الدعوة ضرب من ضروب الجهاد الكريم ، فكيف يتقاعس عثمان ؟!

وتُغرب شمس النبوة الطاهرة عن عالم الدنيا ، ويحزن المسلمون لنبأ وفاة النبي ﷺ ، وتضطرب قلوبهم ، وتثور نفوسهم ، وتضطرم مشاعرهم حتى يُهدىء أبو بكر الصديق ثورة هذه النفوس الهائجة . ويكبح جماحها . ولم يرو لنا التاريخ عن عثمان بن عفّان في هذا الموقف إلا صورة المؤمن الصابر المحتسب في حزنه الشديد !

حزن عثمان لوفاة النبي ﷺ كما حزن غيره من المسلمين ، ولكن حزنه لم يبلغ الثورة والتهديد والوعيد كما رأينا عند عمر بن الخطاب ، وسرعان ما بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة فانبرى عثمان بن عفّان يعطي الإسلام في عهد أبي بكر مثلما كان يعطيه قبل ذلك العهد ، فمما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما المعاني التالية :

أصاب الناس قحط في زمان أبي بكر فقال الخليفة لهم : إن شاء الله لا تمسون غداً حتى يأتيكم فرج الله ... فلما أشرقت شمس الغد ، قدمت قافلة لعثمان بن عفّان . فأهرع إليه التجار يساومونه وبلغت زيادتهم حتى العشرة . خمسة عشر . فقال لهم عثمان : قد زادني . قالوا : نحن هنا جميعاً ، فمن الذي زادك ؟ قال لهم عثمان : إن الحسنة عند الله بعشرة أمثالها . ثم نادى عثمان بن عفّان : « اللّهم إني وهبتها لفقراء المدينة ، بلا ثمن وبلا حساب » .. هذا هو عثمان بن عفّان ، وهذا فيض جوده يستمر في عهد الصدّيق .

وبينما هو كذلك تراه زاهداً في حياته الشخصية ، وفيما يقوله شرحبيل بن مسلم عن عثمان بن عفّان أنه : « كان يُطعم الناس طعام الإمارة ... ويأكل هو الخل والزيت » .. ومتى شغلت الدنيا عثمان وأمثاله ؟

إنه عثمان . وقد نهل من بحر القرآن ، وتربى على يد محمد عليه

الصلاة والسلام ، فكيف يُدْهَش لأعماله في الإسلام ومن أجله مهما قال عنها إنسان ؟!

ويدعو أبو بكر الصدّيق عثمان بن عفّان ليكتب الكتاب الذي عين فيه عمر بن الخطاب خليفة على المسلمين من بعده ، ويتحمل عثمان تبعات المؤمن الصادق الإيمان كما تحملها مع النبي عليه الصلاة والسلام فشارك في معظم الغزوات إلا « بدراً » التي ظن بأن المسلمين لن يقاتلوا فيها فاستأذن رسول الله ﷺ لأن زوجته « رقية » كانت مريضة ، فطلب أن يبقى بجوارها يُشرف على علاجها وهي مريضة مرضها الأخير ، فأعطاه عليه الصلاة والسلام الإذن فبقى . ثم ندم .

ولم يتخل عن دوره ، أو يُعْطِ غير الأفضل فيما كُلِّف به في حروب الردة أيام خلافة أبي بكر الصدّيق . واستمر عطاء عثمان بن عفّان على نفس الدرجة والمستوى في عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

فكان - رضي الله عنه - مقرباً من نفس عمر بن الخطاب يحصى له الناس والمال من أجل العطاء ، ويستشيره عمر الفاروق في أمور التجارة والزراعة حيث مجاله وخبرته وتجاربه ، كما يستشيره ويستنير برأيه في كل أمور الدولة الإسلامية ، إنه المؤمن الذي « أمره كله خير » .. إنه عثمان بن عفّان .

وإذا كان النبي ﷺ تأهب ليثأر لعثمان عندما أرسله يفاوض الكفار في صلح « الحديبية » وأشاع الناس بأن كفار قريش قتلوا عثمان . فإن أبا بكر الصدّيق وجد فيه ما يشد به أزره ، ويأتمنه على سره ، ودعاه يكتب له كتاب من يلي الأمر من بعده ، فإن الفاروق عمر بن الخطاب قد رشحه ليتولى أمور المسلمين من بعده ، وكيف يقدم الفاروق على ذلك إلا وهو راضٍ عن عثمان كل الرضا .

وليس النبي ﷺ وحده ، أو صحابته أجمعون ، أو التابعون كلهم ، بل المسلمون يحبون عثمان ، ويعرفون منزلته ومكانته وما قدمه للإسلام ، فقد عرف المسلمون ذلك فأحبوا عثمان منذ فجر الدعوة الإسلامية في شعاب مكة . وما زالوا يعرفون لعثمان ذلك حتى يومئذ وإلى ما شاء الله تعالى . وهل يستطيع ذو عقل نير ، وفكر حر ، أن يقرأ عن عثمان وسيرته ولا يحبه ؟! إنه لا محالة سيحب عثمان .

* * *

عثمان بن عفان – خليفة المسلمين

« أصدق أمتي حياء عثمان »

(حديث شريف)

رشَّح الفاروق عمر بن الخطاب عثمان بن عفَّان بين الذين رشحهم لخلافة حكم الأمة الإسلامية . ولم يعين واحداً بالتحديد كما فعل أبو بكر الصدِّيق ، أو لعله لم يرد أن يتحمل تبعات الخلافة حياً وميتاً ، أو قد يكون رأي في حرصه على العدل ، وإقامته على ميزان الحق ، وسهره على الرعية ، وإقامته الدولة على أسس وقواعد لا تعرف الهوى ، ولا تحرص على غير إقامة مبادئ الإسلام وفيها الصالح العام للمسلمين جميعاً ، وكان يرعى أهل الذمة ، ويشملهم برحمته المعروفة ، وعطفه المعهود ؛ فكانوا يعيشون في ظل عدل الفاروق عمر كما عاشت الرعية كلها في ظلاله . كان الفاروق كذلك ، وبرغم ذلك يطعنه أبو لؤلؤة فيروز المجوسي طعنات يموت منها شهيداً . لعل عمر بن الخطاب من أجل ذلك لم يجدد واحداً يتولى أمر المسلمين من بعده ، أو لعله أراد أن يتدرب المسلمون على اختيار خليفتهم بأنفسهم وقد اختاروا قبل ذلك أبا بكر الصديق .

على أية حال لم يعين عمر شخصاً بعينه واختار المسلمون عثمان بن عفَّان خليفة لهم من بعد عمر بن الخطاب ، اختياراً حراً .

ولعل المسلمين أرادوا ليناً بعد صرامة الفاروق عمر ، ودعة تبرد في ظلها أعصابهم ، ولم يختاروا علياً حتى لا تُحبس الخلافة في بني هاشم فيصبح خروجها من البيت الهاشمي أمراً صعباً . ولعلهم أيضاً وجدوا في تقدم العُمْر بعثمان الخبرة والتجربة والحُنكة فكان يوم اختياره خليفة للمسلمين قد جاوز السبعين من عمره وهو شيخ وقور ، ومن المسلمين السابقين ، وزوج ابنتي رسول الله ﷺ ، والعرب تحترم الكبير لسنه ، فما بالك وقد ألبسه المسلمون ثوب الخلافة ؟!

واستمر عثمان بن عفّان على وداعته ، وتسامحه ، ولين جانبه .. وفي خلافته امتدت الفتوحات ، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، ومع هذه الحروب يدخل أقوام في الإسلام ، وكثير من الناس يقبلون الإسلام دون العروبة ، ومن أجل ذلك واستشهاد خلق كثيرين من حفّاظ القرآن الكريم جمع عثمان بن عفّان القرآن الكريم وأثبته على قراءة واحدة ، وحرف واحد . وما زال المسلمون حتى اليوم وإلى ما شاء الله تعالى يقرأون القرآن كما أثبته ذو النورين عثمان . وكم تسمع اليوم ، وسوف تسمع غداً ، أو بعد غد : أهذا على مصحف عثمان ؟ ولعلك رأيت ، كما رأي كثيرون غيرك بأن أعجمياً يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، لا يسقط منه حرفاً واحداً ، ويتلوه بلسان عربي قويم . وإذا سألته بالعربية : ما اسمك يا هذا ؟ لا تسمع منه إجابة لأنه لا يعرف اللغة العربية . كما لعلك أيضاً سمعت أو قرأت بأن محاولات متعددة قام بها أعداء الإسلام ، وسوف تتكرر مع الأيام من أجل تحريف القرآن الكريم . وهم يجهلون قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1] ، كما يجهلون أيضاً بأن عثمان بن عفّان جمع ذلك القرآن على حرف واحد ، واجتمعت عليه قلوب المسلمين في كل زمان ومكان . نعم .. عثمان الذي اختاره المسلمون خليفة لهم بعد الفاروق عمر !

يرحم الله عثمان دائم العطاء الخصب للإسلام !!

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفّان ركب المسلمون البحر لأول مرة وكان لهم أسطولهم ففتحوا قبرص ، ورفرفت هناك راية الإسلام ، وما زالت مقابر الصحابة حتى اليوم يجدها من يزور هذه الجزيرة .

ولكن أعداء الإسلام قد يُظهرون في صورتهم الحقيقة ، أو يلبسون غيرهم ثيابهم ، أو ينحلوه أسماءهم ، وهم ينتهزون الفرص ليقتنصوها وقد وجدوا في حياء عثمان وتسامحه ، وطيب نفسه ومكارمه التي شملت كل الرعية ، وجد

---

(١) الحجر : ٩

هؤلاء الأعداء مناسبة طيبة ، وفرصة سانحة واستدرجوا كل غُر من المسلمين فكانت « السبئية » في اليمن ولها أنصارها وأعوانها ، ولا يقلل من مخاطرها ما يراه بعض الباحثين بأن « عبد الله بن سبأ » شخصية خيالية وهمية - كما يرى ذلك الدكتور أحمد شلبي في موسوعته الإسلامية - فالذي لا ينكره أحد بأن دعوة « عبد الله بن سبأ » قد وُجِدَت في خلافة عثمان أو زاد حدتها أو تنفست في العراء واضحة ، وهى تعادي الإسلام سواء انتحل عبد الله - هذا - الإسلام أو الاسم أو ثياب الإسلام وقد اتخذ منها ستاراً ، فلم ينكر ذلك أحد حتى الآن - فيما أعلم - وكيف ينكر هذا ؟

وبدأت هذه الدعوة تعطي أهدافها بفرقة المسلمين ، واضطرام نارالاختلاف بينهم ولا سيما في بني هاشم الذين كانوا يرون - أو نفر منهم - بأن علياً أحق بالخلافة من سواه . وبين بني أمية الذين من صلبهم عثمان بن عفّان . وكل ما يهم أعداء الإسلام أن يروا نيران اختلافات المسلمين مشتعلة ، والقتال بينهم يحتدم ، فالمستهدف الإسلام .

ولم تكن « مصر » وبخاصمة مدينة « الإسكندرية » بأقل من اليمن ثورة واضطراماً . وقد قدم وفد من مصر يشكون للخليفة عثمان واليهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، فطيَّب الخليفة خاطرهم ، وأنذر واليهم إذا لم يستجب لنصحه ، وأرسل معهم ما فيه تعنيف عبد الله بن سعد ووعيده . بل أرسل معهم « محمد بن أبي بكر » يتدارس الأمر ويُصلح الشأن ، فإن حقق ذلك فبها ونعمت ، وإلا تولى إمارة مصر بدلاً من عبد الله بن سعد بن أبي السرح كما يرغب في ذلك وفد مصر .

وقصة الغلام الذي قابل هذا الوفد عندما كانوا يستريحون من مشقة السفر وهم في طريقهم إلى مصر . وأفادهم بأنه مرسل من الخليفة إلى والي مصر ، وعثروا معه على وثيقة ممهورة بخاتم عثمان يأمر واليه بضرب أعناق الوفد ومعهم « محمد بن أبي بكر » قصة مشهورة .

وهنا قَفَلَ الوفد عائدين إلى المدينة ، وذهبوا إلى عليّ بن أبي طالب وهو قريب من نفس عثمان وقلبه ، وأخذ يناقشه في هذا الأمر حتى تبين في النهاية تزوير هذه الوثيقة جملة وتفصيلاً ، ومن هنا تبدو خطورة هذه الدعوات الهدّامة التي بات هدفها واضحاً محدداً في هدم صرح الإسلام بنشر نيران الفُرقة بين المسلمين ، واضطراب نيران العداوة بينهم .

وإن نظرة متأنية متأملة إلى مراكز الثورة ومواطن الفتنة ، تجعل المتأمل يقف في اليمن – وفيها « عبد الله بن سبأ » – وفي مصر والإسكندرية منها خاصة ، وفي الشام – حيث يُقيم معاوية بن أبي سفيان – وقصة أبي ذر الغفاري معه معروفة مشهورة متواترة ، وموجزها مركزة : بأن أبا ذر زار الشام وسمع شكايات الناس من معاوية وهو الوالي ، فأراد نصحه وتقدم إليه بعد أن رأى مظاهر البذخ والأبهة قائلاً : « إن كان هذا من مال المسلمين فهي الخيانة ، وإن كان من مالك فهو إسراف وتبذير . والله لا يحب المبذرين ولا المسرفين » ، فتألم معاوية ، وشكا أبا ذر للخليفة فأنّب عثمانُ أبا ذر وحدّد إقامته في « الرَّبْذة » ، وكان لأبي ذر مقامه ومكانته بين الناس ، كما كان له أتباعه الكثيرون لدعوته بالإنصاف الاجتماعي . فاقتنص أعداء الإسلام هذه الفرصة السانحة ، وتلك المناسبة الواتية حتى يتخذوا منها فتيلاً تشتعل به نيران الفتنة والفُرقة بين المسلمين . وكيف تغفل عيونهم عن مثل ذلك ؟

وفي اليمن ، ومصر ، والشام ، والمدينة .. يكثر اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، من الفرس والروم ، وكلهم يتربصون بالإسلام الشر ، ويحرصون على دماره وتخريبه أو تشويه صورته على أقل تقدير ، وفي حالة حصولهم على أسوأ النتائج .

وبلغت المحنة ذروتها ووجدت في موقف عثمان بن عفان من عبيد الله بن عمر ابن الخطاب وقتله الهرمزان ، وابنة أبي لؤلؤة الصغيرة – كما يذكر خالد محمد خالد في مؤلفه السابق – حيث اختلف المسلمون في هذه القضية .

كما وجدت في بعض بن هاشم هوىً ولا سيما بعد مقالة عثمان للحسن بن عليّ بن أبي طالب – كما ذكرها صاحب « العقد الفريد » ابن عبد ربه – « فكان عليّ بن أبي طالب كلما اشتكى الناس إليه شيئاً من عثمان أرسل ابنه الحسن إليه . فلما أكثر عليٌّ من إرسال الحسن قال له عثمان : إن أباك يرى أن أحداً لا يعلم ما يعلم ، ونحن أعلم بما نفعل ، فكُفَّ عنا . فلم يبعث عليٌّ ابنه في شئ بعد ذلك » .

كما إن أخذ عثمان أقساطاً من بيت المال لأنه قد تفرَّغ لأمر الخلافة ، ولم يستطع ممارسة تجارته فكان مضطراً أن يسد مطالب الحياة . ولكن المتصيدين للأخطاء ، وجدوا في ذلك مأربهم ،

ومن ذلك أيضاً أن عثمان كان يستأثر بالرأي ، كما كان يؤثر قومه من بني أمية على غيرهم في كثير من أمور الحياة .

ووجد المتآمرون في ذلك ، وفي شيخوخة عثمان ، وحلمه وتسامحه .. ما بين العصر والأصيل .. وعثمان يقرأ القرآن الكريم ، وفيما يرويه بعض الباحثين أنه - رحمه الله - كان يقرأ قول الحق تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾[١].

عندما بلغ عثمان قراءة ذلك انهالت عليه الضربات الآثمة الطاغية ، تمهيداً وتهيئة لاستشهاده .

وكانت زوجته أكثر المدافعين عنه حتى أن الجناة قطعوا أصابعها وهى تتلقى عنه الضربات . كما كان الحسن والحسين ولدا عليٌ بن أبي طالب من أكثر الناس دفاعاً عن الخليفة عثمان بن عفّان وأبديا في ذلك شجاعة تحفظها المراجع المتعددة ، والمصادر الكثيرة التي كتبت عن هذه المأساة المؤلمة . ولكن الشجاعة غالباً لا تنتصر على الكثرة والتدبير والمؤامرة .

---

(١) آل عمران : ١٧٣

وانتقل عثمان بن عفان خليفة المسلمين إلى جوار ربه ، وحبيبه محمد ﷺ الذي يقول أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه - : دخل رسول الله ﷺ بيت عائشة - رضي الله عنها ، فقال : « ..... وعثمان في الجنة ورفيقه أنا » .

ها هو ذا واحد من المبشرين بالجنة ، وهذه أعماله في الإسلام ومن أجل الإسلام ، وهى تخوله تلك الجائزة الثمينة الغالية ، وتقلده ذلك النوط العزيز ، وتوشحه بهذا الوشاح العظيم .

ينال ذو النورين عثمان بن عفان خليفة المسلمين ذلك ، كما ناله أبو بكر وعمر ؛ فإن عدالة الله ورحمته تقتضي ذلك وتحكم به .

* * *

الرابع : علي بن أبي طالب

● على قبل الخلافة :

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾
(الإنسان : ٧ - ٨)

لم يعش عليّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي في الجاهلية زمناً يصل به إلى أبعد من طفولته المتأخرة ، وأمه فاطمة بنت هاشم بن عبد مناف عاشت بعد أن أسلمت حتى ماتت بالمدينة - كما يذكر صاحب « أسد الغابة في معرفة الصحابة » - وهو ابن عم محمد رسول الله ﷺ .

وكان عليّ بن أبي طالب واسع العينين ، أسمر اللون ، متين العضلات ، ضخم الجسم ، عظيم اللحية ، قصير القامة ، فصيحاً بليغاً ، شجاعاً مقداماً جريئاً جسوراً ، جَواداً كريماً ، عطوفاً ، سمحاً ، لطيف الحديث ، حلو المعشر . هذا يكاد يعرفه كل مسلم عن عليّ بن أبي طالب .

عاش « محمد بن عبد اللَه » ﷺ في بيت عمه أبو طالب ؛ بعد وفاة جده « عبد المطلب » ، وكان يجد في عمه العزة والمنعة ، وشاءت إرادة الله أن يموت أبو طالب ، وخديجة بنت خويلد في عام واحد سماه محمد ﷺ بـ « عام الحزن » وعندما كان عليّ في زهاء الثامنة من عمره طلبه ابن عمه محمد ﷺ بأن يعيش معه في بيته حيث كان عمه « أبو طالب » كثير العيال ، قليل المال، فعاش « عليّ » منذ طفولته مع « محمد بن عبد الله » ابن عمه ، وعندما رأى خديجة ومحمداً ﷺ يصليان على غير صلاة القوم للاَّت والعُزَّى فسأل « علي » محمداً ﷺ ما هذا ؟ فقال ﷺ : « هذا دين الله الذي اصطفاه لنفسه ، وبعث به رسله . فأدعوك إلى الله وحده ، لا شريك له ، وإلى عبادته ، والكفر باللات

والعُزّى » فأطرق « عليّ » ثم فكر ، وتأمل الكون وتدبّر وتريث ، فطلب « عليّ » من ابن عمه ﷺ أن ينتظر حتى يراجع أباه أبا طالب حيث هذا أمر لم يسمع به من قبل . واستمر « عليّ » يفكر في هذا الدين الجديد حتى هداه الله إلى الإسلام وهو ما زال في سن الطفولة فكان أول من أسلم من صغار السن ، وكان يؤدي فرائض هذا الدين الجديد سراً في بداية الدعوة ، وأخذ يمارس شعائر الإسلام منذ نعومة أظفاره ، وكلما ازداد تعنت قريش مع المسلمين ، ازداد المسلمون تمسكاً بدينهم ، واستبسالاً في الدفاع عنه ، وهم يستلذون من أجله كل معاناة ومشقة ، وأرادت قريش أن تُرغم بني هاشم جميعاً على أن يثنوا « محمداً » ﷺ عن هذه الدعوة ففرضت عليهم حصاراً اقتصادياً كاملاً قاسياً حتى يُقال : إن بني هاشم أكلوا فيه أوراق الشجر - كما يذكر « محمد قطب » .

ولما اشتد أذى قريش للمسلمين أذن لهم النبي ﷺ بأن يهاجروا إلى « يثرب » فراراً بدينهم من طغيان قريش ، وجبروتها وتعنتها مع المسلمين ، واستبقى النبي ﷺ معه بمكة « علياً » ابن عمه ، كما استبقى أيضاً أبو بكر الصدِّيق حتى يكون رفيقه وصاحبه في رحلة الهجرة ، وأن يقوم « عليّ » بدور تبدو فيه البطولة والجرأة ، كما يظهر فيه الفداء والتضحية والشجاعة والإقدام ، كل ذلك و« عليّ » صغير في سن الصبا أو علي مشارف الشباب ، ولكنه تربي على مائدة النبوة منذ طفولته ، ومارس الفتُوة والفروسية منذ صباه فمَن يكون لهذا الأمر سواه وهو الهاشمي القرشي الشجاع ؟! .

دبرت قريش مؤامرة خبيثة حقيرة دنيئة بأن يقتل شبابها « محمداً » ﷺ بضربة رجل واحد ، وهو نائم في فراشه ، أو أثناء خروجه ليؤدي الصلاة مبكراً ، فأمر الله نبيه بالهجرة ، كما أمر « محمد » ﷺ « علياً » بأن ينام في فراشه ، فنام « عليّ » بلا خوف أو هلع ليكون فداء نبيه وحبيبه ﷺ . وكيف لا يقدم عليّ بن أبي طالب على ذلك ، وقد نشأ في طاعة الله ، وحب رسول الله ، وعرف معنى التضحية ، ومتى يكون الفداء ؟

فأقدم « عليّ » الشجاع في جرأة الأبطال ، وخرج « محمد » ﷺ ، وأغشى الله عيون شباب قريش فعميت قلوبهم فلم يبصروا « محمداً » ﷺ ولم يشعروا به ، وقد بلغ الغار ، فلما أوشكت الشمس على الشروق اقتحمت العصابة بيت « محمد » ﷺ ، ونزعوا الغطاء فوجدوا « علياً » هو النائم في الفراش ، فأصابهم الهلع وأخذهم الجزع ، وبدت الخيبة تجلل وجوههم ، وعرفوا بأن هذه هزيمة وعاراً سوف يبقى أبد الدهر سُبّة قد لحقت بهم ، ومَعَرَّة الزمن .

أما بالنسبة لعليّ بن أبي طالب فيكون الأمر على النقيض تماماً ، إن هذا صفحة مشرقة ، وضاءة من تاريخ ذلك البطل ، وبطولة فذّة قد سطرها في باكورة شبابه . فاستحق أن يشمله ثناء الله تعالى في قوله الكريم من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، واللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ ... ﴾ (١) .

ولما بلغ النبي ﷺ المدينة بدأ عليّ بن أبي طالب يرد الأمانات التي كانت للناس عند ابن عمه محمد ﷺ ، فلما فرغ من ذلك شرع في الهجرة إلى المدينة ، ثم لحق بابن عمه ﷺ هناك ، وبدأ يشارك في تأسيس المجتمع الإسلامي الجديد ، وبدأ النبي ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، ثم بين الأوس والخزرج ، وانطلق المسلمون نحو مقاومة أعدائهم ، وكانت « بدر » أولى غزواتهم . وقد اشترك البطل عليّ بن أبي طالب في جميع هذه الغزوات ما عدا غزوة « تبوك » التي استخلفه النبي ﷺ على المدينة في حينها .

وقد أبدى عليّ بن أبي طالب في هذه المشاهد من البطولات ، والفروسية والجرأة ، والشجاعة ، والإقدام ما جعل لعلي في هذا صورتين مختلفتين .. الأولى منهما :

إن بطولة فذة ، وجرأة نادرة ، وشجاعة وإقدام ذلك كله اقترن باسم علي بن أبي طالب ، فخشيه الأعداء ، وهابه وخافه فرسانهم وأبطالهم ، مثل شيبة

(١) البقرة : ٢٠٧

وعتبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة الذين دفعت بهم قريش يوم وقعة « بدر » فكان من نصيب البطل الهاشمي ضحية من هؤلاء الفرسان من صناديد قريش ، وفي غزوة الخندق خرج عمرو بن وُدّ متحدياً المسلمين ، وهو ينادي : من يبارز ؟ من يبارز ؟ فخرج له عليّ بن أبي طالب وفجأة قضى عليّ بن أبي طالب على عمرو بن وُدّ .

وفي فتح خيبر أبدي البطل المسلم الهاشمي علي بن أبي طالب من ضروب البطولة والشجاعة ما سجلته المصادر والمراجع بتواتر . وكان يحمل لواء المسلمين ، ولما استطاع يهودي مخادع طرح ترس بطلنا المقدام ؛ فتناول عليّ بن أبي طالب باباً ثقيلا وتترس به وكان هذا الباب عند الحصن حتى تم له النصر .

صورة مشرقة وبطولة فذة عُرف بها عليّ بن أبي طالب ، واقترنت باسمه ، ويجد فيها كل مسلم - وحتى غير المسلمين - مثالاً يُحتذي ، وأسوة تُقتدي لتربية النشء من أبناء أمتنا العربية والإسلامية ، وصورة للبطل العفيف والشجاع الجريء دون افتراء ، أو طيش ، أو طغيان ، فهى قوة خيِّرة بنَّاءة تُستخدم للدفاع عن النفس ، والحِمى ، والوطن وصد المعتدين الآثمين ، وتقليم أظافرهم ، ورد كيدهم في نحورهم ، وكسر غطرستهم ، وفل جبروتهم . ما أروع الصورة ! وما أكرم البطل !

أما الصورة الثانية .. فتأتي نتيجة طبيعية للصورة السابقة . ولكنها عكسية الأثر فإن هؤلاء الذين صارعهم البطل الهاشمي علي بن أبي طالب ؛ فصرعهم ، وأولئك الذين بارزهم فأرداهم قتلى ، وما أكثرهم ! فلم تخلُ منهم موقعة من المواقع الحربية التي دارت بين المسلمين والكفار ، وقد اشترك فيها علىّ بن أبي طالب ، وفي كل مناسبة فرضها هؤلاء الذين لقوا حتفهم على يده الطاهرة . إن هؤلاء القتلى قد خلفوا بعدهم من يتامى الأبناء ؛ وثكلى وأرامل النساء أعداداً كبيرة ، ولا يستطيع الإحصاء أن يُقَدِّم رقماً دقيقاً عن أقارب هؤلاء القتلى من أبناء العم أو الخال أو الأصهار ، وكلهم قد أصبح لديه موجدة من

البطل المسلم عليّ بن أبي طالب واقترنت صورته في ذهنه ، بأنه قاتل أباه أو عمه ، أو خاله ، أو هو سبب أن أخته أرملة ، أو عمته ، أو خالته ثكلى من ضربة قضت على وحيدها يوم كذا ، أو في الموقعة الفلانية ، أو قاتل جاره ، أو صديقه . صورة جعلت عدداً كبيراً من هؤلاء الناس يكرهون البطل الشجاع ، وقلوبهم مفعمة بالحقد عليه ، والموجدة منه ، وهو برئ فلم يقتل إلا مدافعاً عن الحق ، ومنافحاً للباطل ، أو راداً لتطاول . كما رأينا من عمرو بن وُدّ فى يوم خيبر ، أو مدافعاً عن نفسه أو دينه ، أو حبيبه محمد ﷺ .

فالإسلام يدعو إلى القوة . قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١) .

فالدعوة إلى إعداد القوة الشاملة الكاملة واضحة صريحة من تنكير كلمة « قوة » ، ولكنها القوة الخيِّرة البنَّاءة لا الغاشمة الطاغية المدمرة المخربة ، فهى التي تُرهب الأعداء فتوقف عدوانهم ، وتجنب الناس ويلات الحروب ودمارها . فهي قوة في ظلها يسود السلام . فما أجملها قوة !

ولم تكن قوة البطل الجرئ عليّ بن أبي طالب إلا من هذه القوة الإسلامية الشاملة كما يحددها القرآن الكريم دستور الإسلام الخالد .

ومن هنا لا تأخذك الدهشة ، ولا تلفك الحيرة إذا قرأت عن واحد – وقد يحمل أسماء المسلمين ، أو يندس بين صفوف المسلمين – فيصور لك عليّ بن أبي طالب بصورة « تيمور لنك » أو « أدلف هتلر » أو « نابليون بونابرت » . وقد يستهدف أن تنطبع صورته في أذهان الأطفال مثلما تنطبع صورة القتلى ومثيري الرعب حتى في الخيال « كالغول » مثلاً ، يريد ذلك لشئ قد أصابه من البطل الشجاع فيسلك لبلوغ مآربه مسلكاً خبيثاً شريراً آثماً .

وقد يجد كثيراً من أغرار المسلمين الذين يتجاوبون مع أصداء هذا الطبل الجنائزي نغمات ماكرة ، ودعوات خبيثة مسمومة ماهرة ، وطبل أجوف قد

(١) الأنفال : ٦٠.

يرقص له بعض المسلمين الغر المساكين . وكلهم - أعنى المسلمين - يحب عليّ بن أبي طالب ، أو ينبغي أن يحبوه ، وكيف لا يحبون « علياً » بطلهم الشجاع الجرئ الذي زاد عن حياضهم ، ورد كيد أعدائهم في نحورهم ، وحمل لواء الإسلام فكان بطولة فذة ، يشرف بها كل مسلم ، أو تشرف كل بطولة إنسانية .

كيف لا يحبون « علياً » المسلمون كلهم ؟! وبخاصة صبيانهم وفتيانهم ، فكان أول من أسلم صغيراً ، وتحمل تبعات الدعوة الإسلامية منذ نعومة أظفاره .

كيف لا يحب النشء المسلم « علياً » ؟ الذي قدم وهو في سن الصبا أروع صور البطولة ، وأنصع صور التضحية ، وأجل صور الفداء ، وأبهر صور الشجاعة والجرأة يوم نام في فراش النبي ﷺ . وقد تآمرت عليه قريش ، وأصدر قادتها وشيوخها الأمر بقتله عليه الصلاة والسلام بضربة رجل واحد . نام البطل الشجاع في فراش النبي ﷺ غير هيَّاب ولا وجل ، فكيف لا يحبه كل مسلم ؟! وهو ابن عم النبي محمد ﷺ ، رحمة الله المهداة إلى الإنسانية كلها .

ابن عمه .. نعم . وأخوه في الإيمان .. نعم . وزوج ابنته فاطمة الزهراء التي لم يكن بغيرها من أبنائه رسول الله ﷺ .

فكيف لا يحبه كل مسلم ؟! وهو أبو الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ وحباه . فكل مسلم يحب « علياً » ذلك العالم البطل . نعم .. نحبه جميعاً لأن رسول الله ﷺ أحبه ، ويحب من يحبه . وكم يحرص المسلم الواعى العاقل على حب رسول الله ﷺ ! ويبادر مستجيباً لأوامره . وقد أحبه أبو بكر الصدِّيق الخليفة الأول للمسلمين ، وأسند له حماية المدينة أثناء حروب الردة ، وأحبه عمر ابن الخطاب ولم يصدر إفتاء في قضية إلا ويستشير على بن أبي طالب فيها حتى قيل : « لا قضية إلا وأبا حسن لها » وجرى مجرى الأمثال عبر الزمان على كل لسان .

نعم .. أحبه عمر بن الخطاب ورشحه لخلافة المسلمين ، أليس كذلك ؟!

فكيف لا يحب المسلمون - كل المسلمين - عليّ بن أبي طالب ؟!

ولكن الذي أرجوه ، وألح عليه ، وأؤكده : هو ذلك الحب الراشد الناضج ، الواعي . الحب الذي كان يحبه رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب . ذلك الحب الذي يرضي عنه عليّ بن أبي طالب نفسه ويجعل صورته كما هي صورة وضاءة مشرقة للبطل المسلم ، الشجاع الجرئ ، المقدام . حب يُصَوِّره حديث رسول الله ﷺ كما ترويه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول ﷺ يقول : « لا يحب علياً منافق ، ولا يبغضه مؤمن » .

فلنحذر ذلك الحب الجياش الفطري الذي يستهدفه أعداء الإسلام وأعداء عليّ ابن أبي طالب بطل العروبة والإسلام العظيم .

فليحذر كل مسلم ذلك الحب الذي قد يتراءى في ظاهره رحمة ووفاء ، وباطنه عذاباً وناراً .

وقد يبلغ هذا الحب درجة متدنية من السذاجة فيكون مثل حب هذه الدبة التي أرادت طرد الذباب من على وجه ابنها بحجر فقضت عليه .

ويحب النصارى عيسى المسيح عليه السلام حباً أفرط فيه بعضهم فكان إساءة لأنفسهم ، كما وضع المسيح عليه السلام في غير ما وضعه الله فيه وما أقره هو عن نفسه . لنحذر هذا الحب عندما تتجه عواطفنا إلى البطل الهاشمي عليّ بن أبي طالب ، وعندما نربي النشء المسلم على حبه رضي الله عنه .

تزوج عليّ بن أبي طالب من فاطمة الزهراء ، ابنة رسول الله ﷺ . وكان عمر عليّ البطل المسلم يومئذ دون الخامسة والعشرين من عمره . وكان فقيراً حتى يُقال : إنه قد رهن درعه أو باعه بأربعمائة درهم لعثمان بن عفّان ، ولما عرف عثمان أن « علياً » يريد أن يُقَدِّم هذا صداقاً لفاطمة بنت النبي ﷺ رد إليه درعه ، نعم .. رده إليه عثمان بن عفّان ذو النورين لأنه يعرف أن هذه الدرع حماية للإسلام والمسلمين جميعاً طالما هي بيد البطل الشجاع على بن أبي طالب ، فكم بارز متحدياً للمسلمين ؟! وأخرس من متطاولين ؟!

تزوجت فاطمة من عليّ وهو فقير ، فلم تذهب إلى بيت زوج ثري كأخواتها :

زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وقد آثر محمد ﷺ ، كما فضّلت فاطمة رضي الله عنها « علياً » الفقير عن غيره ، فيقال : بأن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب كليهما أراد الزواج من فاطمة بنت محمد ﷺ .

وكانت يد الله تبارك هذا الزواج الكريم وترعاه ، فقد نشأ علي بن أبي طالب في بيت محمد عليه الصلاة والسلام ، وتفتحت عينا فاطمة عليه فأحبته منذ الطفولة ، وأحبها منذ كانا صغيرين . وكانت نعمة الله على هذين الزوجين الطاهرين بأن رزقهما الذرية الطيبة الطاهرة ، فكان مولد الحسن في العام الثالث من الهجرة ، ومع مجئ ثمار انتصار معركة بدر الكبرى ، ثم كان الحسين ، وزينب ، وأم كلثوم . وأشاع هؤلاء الأبناء في ذلك البيت الطاهر السعادة والهناءة والسرور .

وكان البطل العربي عليّ بن أبي طالب كريماً جَواداً ، حتى يُقال : بأن قول الله تعالى من سورة المائدة : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [1] .

في أسباب نزوله : بأن سائلاً مَرَّ على البطل الكريم عليّ بن أبي طالب وهو يصلي فسأله فأعطاه خاتمه الفضي وهو راكع ، ولم ينتظر حتى يفرغ من صلاته فاستحق ثناء الله عليه – كما يرى بعض المفسرين .

وظل عليّ بن أبي طالب يلازم حبيبه وابن عمه محمداً ﷺ حتى مرض عليه الصلاة والسلام بالحمى ، فبقى عليّ وفاطمة بجواره حتى دُفِنَ وهما معه ، وبجواره ، يُمرِّضوه مع غيرهم من بني هاشم حتى أسلم الروح لخالقها .

وقد تمت بيعة أبي بكر الصدِّيق في سقيفة بني ساعدة ، ولم يكن عليّ بن أبي طالب أو عمه العباس بالسَقيفة حيث كانا مشغولين بتجهيز رسول الله ﷺ ودفنه في مثواه الأخير من الحياة الدنيا . فكانت وفاته وأحزانها أكبر من أي شئ آخر مهما كان هذا الشئ . فأقعدهم الحزن على النبي ﷺ ، كما أبقاهم واجب الوفاة .

---

(١) المائدة : ٥٥

وظل عليّ بن أبي طالب قريباً من نفس الصدِّيق والفاروق كما عرفنا ، وهذا الفاروق عمر يقول : « عليّ أقضانا » .

وأدّى عليّ بن أبي طالب دوره في المجتمع الإسلامي كأروع ما يكون الأداء ، فلم يكن يشغل هؤلاء القوم من صحابة رسول الله ﷺ إلا ما يُرضي الله تعالى ، ورسوله ﷺ . فلم تكن الدنيا تُشغلهم عن الآخرة ، ولم تكن المناصب عندهم تعني شيئاً غير تحمل التبعات ، والمشقات ، ويرى الواحد منهم نفسه كأقل فرد في الرعية ، إلا أن الله تعالى قد جعله أثقلهم حملاً بتحمل المسئولية عنهم .

وعندما اختار المسلمون عثمان بن عفّان ظل عليّ بن أبي طالب يؤدي دوره في خدمة الإسلام والمسلمين بنفس الدرجة السابقة ، وعلى نفس المستوى الرائع في عهدي أبي بكر الصدِّيق ، وعمر الفاروق ، بل وفي عهد رسول الله ﷺ . فعطاء الخير من المسلم الصادق دائم مستمر .

وعندما أحدق الآثمون بدار عثمان بن عفّان كان الحسن والحسين ابنا عليّ بن أبي طالب أكثر المستميتين عنه دفاعاً ، ولكن شجاعة البطلين الهاشميين لم تغنِ أمام كثرة هؤلاء الآثمين الكاثرة . فكان قضاء الله حتماً مقضياً . فأسلم عثمان الروح لخالقها برغم شجاعة الحسن والحسين .

ثم بايع كبار المسلمين « علياً » بالخلافة ، وبايعه المسلمون جميعاً .. فكيف كان عليّ بن أبي طالب خليفة للمسلمين ؟

* * *

علي بن أبي طالب - خليفة المسلمين

من كلمات ابن عباس في عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنهما قال : « كان كهف التُقي ، وبحر الندى ، داعياً للمحبة العظمى » .

كانت مسألة دم عثمان بن عفّان أول ذريعة اتخذها المناوئون لعليّ بن أبي طالب ، فاتهموه بالقعود عن المطالبة بدم عثمان ، بل زعموا إنه يأوى بعض هؤلاء القتلة بين جنده ، حتى اضطر عليّ بن أبي طالب إلى ملاقاة هؤلاء القوم مرغماً من وقعة « الجمل » في قتال ما أمّره على نفسه !

ثم انتهت موقعة الجمل بانتصار عليّ بن أبي طالب ، وقد أرسل السيدة عائشة بعد المعركة إلى المدينة مُكَرَّمة مُعَزَّزة في حماية أخيها محمد بن أبي بكر فهي أم المؤمنين ، وابنة أبي بكر الصديق صاحب رسول الله ﷺ في هجرته ، ورفيقه في الغار ، وأول المؤمنين به ، وأول خليفة للمسلمين بعد رسول الله ﷺ . فكيف لا يُنزلها عليّ بن أبي طالب المنزلة الكريمة السامية برغم أنها كانت تدعو ضده ؟

لا يستطيع عليّ بن أبي طالب أن يقف منها غير هذا الموقف ! وهو الذي قال : « ذمتي بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم ... إن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها .. فتقحمت بهم في النار .. وإن التقوى مطايا ذلك حمل عليها أهلها ، وأعطوها أذمتها ، فأوردتهم الجنة ... » .

وقد حرص عليّ بن أبي طالب خليفة المسلمين على راحة الرعية ، فأوصى الولاة بذلك ، ومما قاله لهم : « أنصفوا الناس من أنفسكم ، واصبروا لحوائجهم ، فإنهم خزان الرعية ، ولا تحسموا أحداً عن حاجته ، ولا تحبسوه عن طلبته ... ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم » .

وكتب إلى أحد ولاته يقول له : « انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختباراً ، ولا تولهم محاباة وأثره ...... وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة ، والقدم في الإسلام ، فإنهم أكثر أخلاقاً ... وأقل في المطامع إسرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ..... ثم تفقد أعمالهم ، وابعث العيون من أهل الصدق عليهم ... » .

هذا مما أورد الشيخ محمود السعيد الطنطاوي في مؤلفه « من فضائل العشرة المبشرين بالجنة » ، ويعطيك صورة كيف كان الخليفة العظيم عليّ بن أبي طالب يحرص على سيادة العدل ، والمحبة العظمى بين الناس ، ولا يكون ذلك إلا بمحاربة الظلم ، وإقامة مبادئ الدين الحنيف .

ومما روى عن الإمام الطبري بأن علياً بن أبي طالب قد عزل جميع الولاة الذين كانوا في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، ولعل ذلك ما جعل معاوية بن أبي سفيان يمتنع عن بيعة عليّ بن أبي طالب وهو والي الشام ، ليس هذا فحسب بل إنه اتهمه بدم عثمان بن عفّان ، واحتدم الأمر بينهما إلى الاقتتال في موقعة « صفين » المشهورة . وكادت المعركة تُحسم لصالح عليّ بن أبي طالب لولا تلك الحكاية المتواترة المشهورة التي لجأ إليها معاوية بن أبي سفيان بأن رفع جنوده المصاحف على أسنة الرماح . وكأنهم يطلبون تحكيم كتاب الله . فاضطر الخليفة عليّ بن أبي طالب إلى قبول هذا التحكيم استجابة لرغبة الأكثرية من رجاله ، وكانت قصة التحكيم المعروفة التي مثل فيها الخليفة علي بن أبي طالب ورجاله أبو موسى الأشعري . بينما مثل معاوية وجنده عمرو بن العاص ، واتفق الحكمان فيما بينهما على أن يعزل كل منهما صاحبه حتى تُحْقَنَ دماء المسلمين. وأعلن أبو موسى الأشعري عزل علي بن أبي طالب . ثم أعلن عمرو بن العاص تثبيت صاحبه معاوية بن أبي سفيان . وفي الحكاية حديث كثير ، وأقاويل متعددة ، وآراء متباينة ، وروايات متضاربة ، ولكن هذا مضمونها وتلك خلاصتها المقبولة فيما أرى .

وانقسم جيش عليّ بن أبي طالب خليفة المسلمين حتى اضطر عليّ رضي الله عنه إلى محاربة رجاله الذين استماتت في ردهم إلى حالهم الأولى بالحسنى فلم يقبلوا غير القتال ، فكانت موقعة « النهروان » .

وكانت بحق ، وبكل مقياس مأساة مؤلمة ، موجعة لكل مسلم قويم غيور على الإسلام حريص على دماء شباب المسلمين ، وينظر المسلم فيرى القائدين : عليّ ابن أبى طالب خليفة المسلمين الذى يقول فيه النبى ﷺ : « أنت منى ، وأنا منك » وعليّ من هو على الإسلام وللإسلام وكم قدم من تضحيات ، وتحمل من تبعات من أجل الإسلام .

ومعاوية بن أبى سفيان كاتب من كُتّاب الوحى ، وذكى لبيب ، فمما يُروى عنه ويجرى على كل لسان مجرى المثل قوله : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما قُطعَت ، إذا شدوا أرخيت ، وإن أرخوا شددت » .

ولكنها إرادة الله ، وقوة تأثير الدسائس وأعداء الإسلام وما أكثرهم ، وقد امتدت أرجاء دولة الإسلام واتسعت فزاد عددهم .

واستمر الاقتتال بين المسلمين ، وكأن الأمر قد أفلت من يد القائدين : الخليفة عليّ بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان .

ثم استقر عليّ بن أبى طالب خليفة الأمة بالكوفة ، ولم يستطع لَمّ شمل رجاله ، ولم تجتمع كلمتهم ، بل قد طالب بعضهم بالثأر لقتلاهم .. حتى كان فجر يوم الجمعة الموافق السابع عشر من شهر رمضان فى سنة أربعين هجرية ، خرج الخليفة عليّ بن أبى طالب لصلاة الفجر كعادته ودأبه .

فى ذلك اليوم . وهذا الوقت - فى أكثر من خبر - اغتال عبد الرحمن بن مُلجم علياً بن أبى طالب . واستمر خليفة المسلمين ثلاثة أيام يقاوم آثار هذه الطعنة الآثمة ، ويعانى مرارة آلامها وهو فى بيته وبجواره الحسن بن على بن أبى طالب ، وشقيقه الحسين ، وأهله ، وأقاربه وذووه ، وأتباعه ، وأعوانه . ومما أوصى به قوله : « يابنى عبد المطلب ، لا تخوضوا دماء المسلمين خوضاً ،

تقولون قُتِلَ أمير المؤمنين ، ألا لا تقتلن بى إلا قاتلى ..... ولا تمثلوا به . فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إياكم والمُثلة ولو بالكلب العقور » .

هذا هو الخليفة علىّ بن أبى طالب كيف تراه حريصاً على حقن دماء المسلمين وهو مصاب فى مقتل من يد عبد الرحمن بن مُلْجَم ، بطعنة غادرة .

ولكن الضربة كانت قاضية ، وقضاء الله قدراً مقدوراً ، فأسلم الخليفة علىّ ابن أبى طالب الروح إلى بارئها ، وله من العمر زهاء ثلاث وستين سنة ، قضى زهاء خمسة أعوام منها خليفة للمسلمين ، وقضى نحو نصف قرن ويزيد مجاهداً فى الإسلام ، منافحاً عنه ، متحملاً التبعات الشاقة ، معرضاً نفسه للمخاطر ، حاملاً روحه على كفه ، فداء هذا الدين الحنيف ، ورسوله ﷺ رحمة الله للناس جميعا .. فما أروعها من أعمال ! وما أطيبه من جزاء ! أن يُبَشَّرَ هذا البطل المسلم المجاهد فى الإسلام ، ومن أجل الإسلام : بالجنة ، نِعْمَ الجزاء .

* * *

الخامس : طلحة بن عبيد اللّه

« طلحة والزبير جاريٌ في الجنة »

(حديث شريف)

رجل عربي ، أسمر لون الوجه ، ليس بالطويل فارع الطول ، ولا بالقصير الذي يتميز بقصره كسمة بارزة فيه ، يبدو الذكاء الحاد على وجهه الحسن برغم سُمرته ، حاد البصر ، ضخم القدمين ، عريض المنكبين .. ذلك طلحة بن عبيد اللّه بن عثمان بن عمرو من تيم بن مرة .

وأمه أخت الصحابى الجليل العلاء الحضرمى الذى حمل رسالة الإســلام إلى « أوال » - دولة البحرين الآن - وهذه الأم هى : الصعبة بنت عبد اللّه بن عباد ابن مالك بن ربيعة الحضرمى .

وكان طلحة يُكثر الأسفار فى الجاهلية كسائر تجار مكة وشبه الجزيرة العربية .

وبينما « طلحة » فى سوق بصرى . إذا براهب فى صومعته يهمس فى أذنه قائلاً : ألا تعرف أحداً من أهل هذا الموسم من منطقة مكة بالحرم ؟

فقال طلحة بن عبيد اللّه : نعم . أنا من هذه المنطقة ، أنا من أهل الحرم . ماذا تريد ؟

فقال الراهب وكأنه يهمس : هل ظهر أحمد ؟

فقال طلحة بن عبيد اللّه : من أحمد هذا ؟

فردَّ عليه الراهب قائلاً : أحمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب . هذا شهره الذى يخرج فيه ، ويكون مخرجه من الحرم . واستمر ذلك الراهب فى حديثه وإنه آخر الأنبياء ، ومهاجره إلى « يثرب » ، ثم أكدَّ الراهب على طلحة بن عبيد اللّه قائلا : إياك أن تُسْبَقَ إليه ، احذر ذلك .

قال طلحة بن عبيد اللّه : فوقع في قلبى ما قاله الراهب .

وأخذت الأفكار تجرى برأس طلحة وتدور ، حتى بلغ « مكة » واستمر يفكر فهو تاجر ثرى ، وتجد التجار دائماً يغلب عليهم التردد قبل أن يدخلوا فى أى عمل من الأعمال ، فقد علمته التجارة ذلك ، وأكسبته ممارستها التردد والتروى والأناة قبل أن يتخذ قراراً ، ليس طلحة وحده الذى يتروى ويتردد ، ولكن ذلك دأب التجار بوجه عام فى كل زمان ومكان ، وإنه لدأب دافعه الحرص والتروى وربما الخوف على مراكزهم التجارية .

وعندما بلغ « طلحة » مكة . لم ينتظر ، لأنه يسأل مجرد سؤال : ماذا وقع فى الحرم ؟ فعلم بأن « محمداً » ﷺ تنبأ .

فقال طلحة : أمحمد الأمين ؟ أمحمد الصادق ؟ فعرف أنه محمد الأمين بن عبد اللّه بن عبد المطلب . كما عرف أيضاً بأن أبا بكر بن أبى قحافة قد تبع « محمداً » ﷺ وأبو بكر تاجر ثري ، من أثرى أهل مكة ، ورجل وقور رزين تُقَدِّره العرب وتُجله ، وهو أيضاً من « تيم » فكيف يتروى أو يتردد طلحة ؟

فانطلق إليه « طلحة بن عبيد الله » وكأنه يشعر بأن كليهما ثرى يخاف على ماله ، وأنهما من سادة قريش ، فيخافان على منزلتهما بين الناس فى مكة . كما أن « طلحة » يعرف أبا بكر بأنه ذكى ألمعى ، هادىء ، متزن ، لا يَقْدِم على مثل ذلك إلا إذا تأكد من صدق « محمد » ﷺ وثبات أمره . استمرت هذه الأفكار تجرى فى ذهن « طلحة » حتى بلغ دار أبى بكر بن أبي قحافة ثم دخل إليه ، وعلم منه بصدق ما قاله الراهب فى بصرى . كما عرف من أبى بكر بأنه أتبع « محمداً » ﷺ لأنه يدعو إلى الحق والصدق ، يدعو إلى الإسلام ، وعبادة الله الواحد الأحد ، الخالق الفرد الصمد ، الذى ليس له مثيل ، ولا شريك فى الملك .

ثم قصَّ « طلحة بن عبيد الله » قصة الراهب على أبى بكر بن أبى قحافة ، وانطلق أبو بكر وطلحة إلى محمد رسول اللّه ﷺ ، وتحدَّث « طلحة » والنبى

محمد ﷺ حديثاً لم يستمر طويلاً حتى أعلن « طلحة » دخوله فى الإسلام ، وقصَّ عليه قصة الراهب فى سوق بُصرى فأسعد بها نفس النبى ﷺ ، كما أسعد قلبه الشريف إسلام طلحة بن عبيد الله . وانضم طلحة إلى معسكر الحق .. انضم إلى الإسلام .

حكاية متواترة لا يخلو مرجع ولا مصدر من المراجع التى تُكتب فى سيرة أبى بكر والذين أسلموا على يديه من كبار الصحابة وسراة مكة من هذه الحكاية ، كما تجدها أيضاً فى العديد من المراجع والمؤلفات التى تتحدث عن سيرة الصحابى الجليل طلحة بن عبيد اللّه .

وانضم « طلحة » إلى محمد ﷺ وصحبه مبكراً . ولم يطل تفكيره وتردده لأن أبا بكر الصدِّيق وَفَرَّ عليه ذلك . حيث بينهما كثير من التقارب فكل منهما تاجر فطن ذكى وكفى .

وهل فَكَّرَ « طلحة بن عبيد اللّه » يا تُرى فيما سيتعرض له من المتاعب ، وما سوف يعانيه من المشقات ، ويُلقى على عاتقه من المعاناة ، وما يتحمله من الاضطهاد والتبعات لأنه دخل فى الإسلام ؟

هل فكر بأن أمه « الصعبة بنت عبد اللّه » يطاوعها قلب الأم فتفعل به ما رواه مسعود بن خراش رضى اللّه عنه ، قال : بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثيرون ، يتبعون شاباً موثقاً بيده فى عنقه . قلت : ما شأنه ؟

قالوا : هذا طلحة بن عبيد اللّه . قد صبأ . والمرأة التى وراءه - التى تُدمدم وتسبه - من هذه ؟

قالو : أمه . الصعبة بنت الحضرمى .

هل قَدَّرَ « طلحة » ذلك ؟ وإذا كان هذا من أمه التى خالف دينها .

فماذا يكون من غيرها ؟ من أعمامه ، وأخواله ، ومن سادة قومه ، وكفَّار قريش ، وليس أحدهم يملك قلب الأم !!

لك الله يا طلحة ، ولكم الله أيها المسلمون الأوائل ، فقد صدقتم اللَّهُ العهد ، واشتريتم الآخرة بالدنيا . فنِعْمَ الجزاء ، وصبر جميل .

وهذا نوفل بن خويلد بن العدوية - كما تروى كتب السيرة قديمها والحديث أيضاً - يأخذ « أبا بكر » و « طلحة » ويشدهما فى حبل واحد. ويجرهما على الحجارة والرمال فى وهج صحراء مكة . ولا ينهض أحد من تيم يمنع نوفلاً من فعلته التى يفعل ، كيف ينهض تيمى واحد ؟ وتيم كلها ترى بأن الصحابيين الجليلين « أبا بكر » و « طلحة » قد ألحقا بهم العار بتركهما عبادة الأصنام واتباع محمد عليه الصلاة والسلام يعبد الله الحق . ويدعو إلى عبادته وقد كاد إجماع كتب السيرة يتم على تعنت قريش وإسرافها فى تعذيب المسلمين الأوائل ، واضطهادهم . لم تَنْفِ ذلك حتى كتابات أعداء الإسلام . فلم ينكر ذلك أحد فى القديم أو مستشرق حديث .

ويتقبل طلحة بن عبيد اللّه ذلك من نوفل بن خويلد ، وغير ذلك كثير ، فكله ذهب وبقى لطلحة أنه سُمى لفعلة نوفل بن خويلد هذه ، بأن طلحة سُمِىَ وأبو بكر الصدِّيق يالقرينين . إنه قرين أبى بكر الصدِّيق أول من أسلم من الرجال ، وأول من كلّفه رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام بأن يؤم الناس بالصلاة وهو مريض عليه الصلاة والسلام ، وأول خليفة للمسلمين بعد الرسول ﷺ .

نعم .. بقى ذلك لطلحة بن عبيد اللّه تاريخاً ، وبقى لكل مسلم أسوة وقدوة طيبة . ويبقى إلى ما شاء اللّه له أن يبقى . بقى لتيم فخراً وشرفاً بعد ما كانت ترى فيه معرَّة الأبد . بقى صورة مشرقة لكل مسلم كيف

يكون المسلم المؤمن مع الحق ؟ وكيف يتحمل من أجله ؟ راضياً محتسباً ذلك عند الله تعالى .

نعم .. بقى تاريخ طلحة بن عبيد الله نبراساً يسير المسلم فى ضوئه ، أو على هدى نوره فتتبدد أمامه ظلمات الحياة الدنيا ليستشرف الحياة الآخرة التى هى خير وأبقى .

استمرت مكة تُعذب المسلمين الأوائل بشتى صنوف العذاب ، واضطهد كفارها هؤلاء الذين يدعون إلى الحق ، ولما رأى رسول الله ﷺ ما يعانيه أتباعه من مشقة وعذاب فى مكة وهم بين أهلهم وذويهم ، أذن لهم ﷺ بالهجرة إلى « يثرب » ، نعم .. فليهاجروا .

وفى الهجرة من التعب والإرهاق ما فيها ، مسافة طولها زهاء ٤٧٥ كيلو متراً بقطعها المهاجرون فى بيئة وعرة صيفها شديد الحر ، إنه حر الصحراء ، وفى الشتاء السيول والبرد القارس ، وصعوبة الطريق ، ووعراته ، وما فيه من دروب قد يضل فيها أى إنسان . يجدها المهاجر صيفاً أو شتاء كما يعانى من طول الطريق ، فليس من وسيلة لذلك غير النوق والجمال وقد ينفد الزاد ، أو يضيع الماء فى بيئة هذه الصحراء ، تلك البيئة التى يعز فيها الطعام ، ويندر الماء ، وبرغم ذلك تنافس هؤلاء المسلمون الأوائل لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ... ﴾ (١) . نعم .. ومن يتأخر عن هجر الظلم ؟

تنافسوا يهاجرون من مكة ، مسقط رؤوسهم ، ومقر أسرهم وثرواتهم ،

---

(١) النساء : ٩٧

ومواطنهم وأهلهم وذويهم فى الخفاء أو علانية - كما رأينا فى هجرة الفاروق عمر بن الخطاب - ومنهم من اشترى نفسه ودينه كما يصور ذلك القرآن الكريم فى سورة البقرة فى قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ، واللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [1] . ونعم الرأفة حين يكون الله مصدرها !!

وقد هاجر طلحة بن عبيد الله إلى المدينة ، متحملاً ما شاء الله له أن يتحمل من متاعب ، ومعاناة ، وكانت هجرته - كما تذكر بعض المراجع - مع آل قرينه فى العذاب أبى بكر الصدِّيق ، وقد سبقه إلى المدينة مهاجراً مع النبى ﷺ . وكم لأبى بكر من أفضال على طلحة !

هاجر طلحة بن عبيد الله وفى حراسته آل أبى بكر الصدِّيق ، يشرف على أمنهم وراحتهم ، وهو يتطلع إلى رسول الله ﷺ فى ذلك المجتمع الجديد ، وكأن طلحة قد نسى كل شىء من أهل ومال فى مكة ، حتى بلغ المدينة وفرح بقدومه النبى ﷺ ، كما فرح به أيضاً كل الذين سبقوه فى الهجرة لأنهم يعرفون من طلحة بن عبيد الله شجاعة وإقداماً ، تضحية وفداءً ، كرماً وسخاءً ، وجوداً وعطاء ، كلهم يعرفون ذلك عن طلحة بن عبيد الله ، فعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » . نعم .. بطل مسلم سباق إلى الإسلام ، وهو فخور به ، وفخر له . ونزل ذلك البطل المسلم المهاجر على أخيه أسعد بن زرارة من الأنصار ضيفاً كريماً وأخاً محبوباً فى الله ومن أجل الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [2] وأكرم بها إخوة ! إنها نعم الأخوة الرحبة

---

(1) البقرة : ٢٠٧ (2) الحجرات : ١٠

الخصبة ! فأنزله أخوه « أسعد » منزلاً كريماً ، كما فعل الأنصار غيره مع إخوانهم من مهاجرى مكة ، ويُصَوِّر الحق تعالى هذا المجتمع الجديد الذى عاش فيه المهاجرون ، كما أعدَّه وهيأه محمد ﷺ لهم فى قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١) . صدق الله العظيم . وهكذا كان هؤلاء المسلمون .

إنه محمد بن عبد الله ﷺ يُربى النشء ، ويُهذب النفوس ، ويبنى المجتمع على أسس وقواعد متينة ، يصبح الناس فى ظل هذا المجتمع أخوة متحابين ، فى تضامن وتكافل . إنه قائد رائد يسير فى ظل هدى الله ، وضوء أحكام الله فيبنى مجتمعاً يجد كل إنسان نفسه فيه فيُعطى وهو راض بذلك العطاء مهما بلغ ، ومهما كلف وشق .

وإذا كان الله قد صوَّر أحوال المهاجرين فى قوله تعالى السابق ، فهذا قول الحق يُصَوِّر الأنصار ، ونفوسهم نحو إخوتهم المهاجرين ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) . صدق الله العظيم . نعم .. كان هؤلاء المسلمون كذلك .

ويصور ابن سعد – فى طبقاته – هذه المؤاخاة التى اهتدى إليها محمد ﷺ – بفضل ربه تعالى – بين المهاجرين والأنصار ، حتى شعر المهاجرون بأنهم فى ديارهم ، ثم يصف ابن سعد ما كان بين طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، أو بين طلحة وكعب بن مالك ، فترى المسلم من

---

(١) الحشر : ٨ (٢) الحشر : ٩

الأنصار سعيداً مسروراً بمشاركة أخيه المهاجر له فى داره وزراعته وما يملك من مال وعتاد وحيوانات . هى أخوة الإيمان ، وقد استقر فى القلوب ، واطمأنت فى ظله النفوس بأن المال لله ، وهؤلاء خلفاء الله عليه ، وأولئك إخوتهم فهم شركاؤهم فيما يملكون ، وكلهم سعداء ففى سبيل الله يبذلون ، وهو مجال تحلو فيه المنافسة بين رجال محمد ﷺ .

وفى « الحوراء » بصحراء شبه الجزيرة العربية بين مكة ويثرب قبع طلحة بن عبيد الله ، ومعه سعيد بن زيد وهما مكلفان من رسول الله ﷺ برصد حركة أكبر قوافل قريش التى تحمل تجارتهم ، وتمر على قرب « يثرب » ، وكأن هذين البطلين - طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد - عينان نافذتان ، أو كأنهما جنديان فى سلاح الحدود الآن ، أو سلاح الإشارة ، أو قبسة من سلاح الإنذار المبكر . ولكنهما يسيران فى ضوء نور الإيمان وهدى الحق . وكأن عيونهما عيون الصقور فهى باتت تحرس فى سبيل الله .

وكم عانى طلحة بن عبيد الله ، وإخوانه المهاجرون من ظلم قريش واضطهاد كفارها !! وعندما رصد البطلان تحركات هذه القافلة عادا إلى المدينة بالخبر إلى الرسول ﷺ إلا أنهما عرفا بأن الرسول ﷺ قد عسكر بالجيش عند موضع يقال له « بدراً » ، وتم اللقاء الأول بين كفار شبه الجزيرة العربية والمسلمين الذين مَنَّ اللّهُ عليهم بأول نصر مؤزر وهم أقل عدداً ، وعُدة ، وعَتاداً من عدوهم .

وبرغم فرحة طلحة بن عبيد الله بنصر المؤمنين ، إلا أنه أسف لعدم مشاركته فى هذه الحرب ، ولما أحسَّ النبى ﷺ بذلك الأسف طمأن طلحة وسعيداً بأن لهما أجر المجاهدين فى بدر ، كما لهما سهامهم .

أحسَّ كفار مكة بألم هزيمتهم فى يوم بدر ، فأعدت قريش جيشاً ضخماً

فى العام التالى وكانت معركة أحد . التى بدا النصر فيها للمسلمين أول الأمر حيث تراجع المشركون وعملت سيوف المسلمين فيهم . ولما رأى الرماة ذلك تركوا أماكنهم ، ونزلوا يشاركون فى جمع الغنائم ، ظناً منهم بأن المعركة قد حُسمت لصالح المسلمين ، وكأنهم قد نسوا نصيحة الرسول ﷺ لهم بعدم ترك الجبل فى حالتى النصر أو الهزيمة .

وقد رصدت عينا خالد بن الوليد القائد الماهر ، وصاحب العبقرية العسكرية النادرة الذى كان يقاتل يومئذ مع الكفار ، وكان أمهر قادتهم ، فاستغل فرصة نزول الرماة من المسلمين من فوق الجبل وتقدم المسلمين يجمعون الغنائم والأسلاب ، فَكَرَّ على المسلمين من خلفهم وأخذهم على حين غفلة منهم ، فاضطرب جمعهم ، وفَرَّ الكثيرون منهم .

وأحدق الكفار بالنبى ﷺ . وكادوا يُلحقون به ما تتمنى نفوسهم لولا نفر قليل من شجعان المسلمين الذين ثبتوا حول النبى ﷺ وأحدقوا به وأحاطوه ، ومنهم طلحة بن عبيد الله ذلك البطل المسلم ، ويصوِّر ابن سعد - فى طبقاته - مقالة ابنتى طلحة فى يوم أحد قال : « جُرِحَ أبونا يوم أحد أربعة وعشرين جرحاً ، وشلت إصبعه ، وسائر الجراح فى سائر جسمه ... » وقد شُجَّ رسول الله ﷺ يوم أحد فى وجهه ، وقد حمله طلحة ورجع به القهقرى وهو يقاتل دونه المشركين قتالاً لا يطيقه أحد غير طلحة ، حتى قال أبو بكر الصدِّيق عن يوم أحد : « ذلك كله يوم طلحة » . نعم ..تحولت الهزيمة إلى نصر بفضل جهاد هؤلاء الأبطال الصناديد .

ومما يُروى عن النبى ﷺ فى يوم أحد قوله : « أوْجب طلحة » : أى قدَّم من الأعمال ما يُوجب له الجنة ، أعمال عظيمة جعلت النصر فى أحد للمسلمين . بينما كانت كفة القتال تدور لغير صالحهم فى وسط المعركة .

ومما رواه أبو هريرة عن الرسول ﷺ في يوم أحد « بأن رسول الله ﷺ مسح بيده الكريمة جراح طلحة وهو يقول : « اللهم اشفه وقوِّه » ، ويعجب النبى العظيم بالمجاهد المسلم البطل فيدعو له ، ويشجعه لأنهم رجال يعدهم لأمر عظيم . بناء أمة كانت بحكم الخالق ، وأعمال هؤلاء الرجال الذين عملوا فى ضوء هدى محمد ﷺ ، وبمبادىء القرآن كانت خير أمة . ومما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لطلحة بن عبيد الله : « أنت فى حفظ الله ورعايته إلى أن تلقاه » .

وطلحة بن عبيد الله جدير بذلك الثناء وهذا الدعاء ، فكان رحمه الله جَوَاداً كريماً حتى سمَّاه رسول الله ﷺ : طلحة الخير ، وطلحة الفيَّاض .

ومما ترويه كتب السيرة بأن « سُعدى بنت عوف » زوجة طلحة قالت : دخلت على طلحة يوما فرأيته مغموماً مهموماً . فقلت له : ما شأنك ؟

قال : المال الذى عندى ، قد كثر فأكربنى .

فقلت : وما عليك . أنفقه على فقراء المسلمين .

فأنفقه ووزَّعه حتى ما بقى منه درهم . نعم .. أنفقه كله .

وفيما يُقال : بأن هذا المال كان أربعمائة ألف .

وتحكى كتب السيرة فى كرمه وجوده ، وصلته الرحم ، والسخاء الذى كان عليه قصصاً كثيرة يظهر خلالها طلحة بن عبيد الله بأنه يُسَخِّر كل ما يملك من أموال للفقراء والمساكين لعله يُرضى الله . فلم يترك واحداً من بنى تيم عائلاً إلا أعطاه من المؤونة ما يكفيه وعياله . كما كان يقضى دين الغارمين منهم . هكذا كان طلحة بن عبيد الله البطل المسلم .

وكان طلحة بن عبيد الله - فيما ترويه كتب سيرته - يرسل إلى السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إذا كان حصاد غلته كل عام : عشرة الآف . وكم كان طلحة يستحى من الله أن يرد أمل مُؤَمِّل فيه !!

وبرغم ذلك كان زاهداً متقشفاً ، كما كان فصيحاً بليغاً إذا خطب . ومما يثبته ابن مسعود رضى الله عنه لطلحة بن عبيد الله وهو يرد على الفاروق عمر بن الخطاب عندما سأله عن قتال ملوك فارس قال طلحة : « .... مرنا نطع ، وادعونا نجب ، واحملنا نركب ، وقدنا ننفذ ، فإنك ولى هذه الأمور وقد بلوت واختبرت ، فلم ينكشف لك عن شىء من عواقب قضاء الله عز وجل إلا عن خيار » . ما أجملها بلاغة ، كلام مؤثر مؤسر ، قليل لفظه كثيرة معانيه .

ولم يكن جهاده للمرتدين فى عهد أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه بأقل مما يعلنه فى استعداده للفاروق عمر لقتال فارس وملوكها .

فكان رحمه الله تلميذاً أحسن أستاذه ومعلمه وقائده ورائده محمد ﷺ إعداده ، وقد وهبه الله استعداداً طيباً طاهراً فى الشجاعة والإقدام ، والجود والكرم ، والفصاحة والبلاغة . إنه عطاء ربك الكريم ، يخص به من يشاء من عباده !!

وكان أثناء حروب الردة قد اختاره الصدِّيق أبو بكر لتأمين المدينة مع البطل الهاشمى علىّ بن أبى طالب ، ومعهم الزبير بن العوّام حتى إذا سوّلت لهؤلاء المرتدين نفوسهم باقتحام المدينة ألفوا فى مقدمة المقاتلين المكلفين بالدفاع عنها أبطالاً صناديد ، ورجالاً يعرفون من هم فى القتال والنضال . وكلهم يعرف كيف قاتل طلحة بن عبيد الله يوم أُحد ؟ ، وكيف قاتل فى كل غزوات النبى ﷺ ؟

وها هو ذا اليوم يُوكل إليه أبو بكر حماية مدينة رسول الله ﷺ مع من ؟ مع البطل علىّ بن أبى طالب . فهل هناك من يجرؤ على اقتحام المدينة ؟ أو حتى يقترب منها ؟ وهى بين المدافعين عنها طلحة بن عبيد الله ؟

وهل هناك أقوى من هذا دليلاً على منزلة الصحابيين الجليلين علىّ بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله عند أبى بكر الصدِّيق ؟ إنهما يتوليان حراسة أهم المواقع وحمايته .. مدينة رسول الله ﷺ أمانة من الصديق - وهو يقيم فيها - فى يد البطل الهاشمى علىّ بن أبى طالب ، والبطل التيمى طلحة بن عبيد الله .

وكان طلحة بن عبيد الله ينزل منزلة عالية فى قلب الفاروق عمر بن الخطّاب ، وعندما طعنه أبو لؤلؤة فيروز المجوسى الطعنة القاتلة التى أودت بأمير المؤمنين رشح ستة من كبار الصحابة ، وأكثرهم ذكاء إدارياً ، وقدرة على تحمل التبعات ، وتسيير أمور الدولة الإسلامية كما يرى الفاروق عمر ابن الخطّاب .

وليس أدل على المنزلة العالية التى يُنزلها أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطّاب للبطل المسلم ، صقر أحد ، طلحة بن عبيد الله فى نفسه بأنه قد رشحه واحداً من هؤلاء الرجال العظماء الذين يختار المسلمون منهم واحداً يتولى أمرهم بعد الخليفة أمير المؤمنين الفاروق عمر .

ويُقال إن هذا الترشيح قد تم وصقر أُحد طلحة بن عبيد الله خارج المدينة فإن ذلك يعطى دلالة أكثر لتلك المنزلة المرموقة التى كان طلحة يحتلها فى قلب أمير المؤمنين الفاروق عمر ، وصحابة رسول الله ﷺ . نعم .. وكم فى الدنيا كلها مثل طلحة !!

ويمضى الزمن ، وتمر السـنون والقرون ، وما زال طلحة بن عبيد الله يتربع فى قلوب المسلمين ، ويجدون فى جهاده وشجاعته ، وتضحيته وفدائه الأسوة الطيبة ، كما يجدون فى كرمه وجوده الفيّاض القدوة الحسنة .

أجرى الاستفتاء ، واختار المسلمون عليًا بن أبى طالب خليفة لهم ، ولعل نفس طلحة بن عبيد الله كانت تتوق إلى أمر الخلافة ، وإنه توق مشروع .

فلما تولى علىّ بن أبى طالب ، ولم يعينه حتى والياً لربما يكون ذلك قد أثر فى نفسه . ولم يستمر حكم علىّ بن أبى طالب للمسلمين طويلاً حتى رفع بنو أمية بقيادة معاوية بن أبى سفيان راية العصيان لعلىّ ، واندلعت الفتنة فى كثير من المواضع ، والتقى المسلمون يقاتل بعضهم بعضاً فى موقعة « الجمل » . ويخيل إلى القارىء المدقق بأن كل منهم كان يكره ذلك ولا يرجوه ولكنها الدسائس والعناد ، ونار الفتنة يُوقدها أعداء الإسلام - وما أكثرهم - أوقفت المسلمين هذا الموقف المؤلم .

وبينما علىّ بن أبى طالب يذكّرُ البطل طلحة بن عبيد الله بأنه أول من بايعه ، وبأنه مُكَلَّف من رسول الله ﷺ بموالاته ومناصرته . وطلحة يحسن الاستماع لكلمات علىّ بن أبى طالب ، بينما البطلان الكبيران والمجاهدان العظيمان يتعاتبان ، يأتى سهم فيُصيب طلحة بن عبيد الله ، فيقضى عليه . ويُسلم الروح إلى خالقها ثم يمضى إلى حيث وعده الرسول الكريم ، وبشَّره إلى الجنة فى جواره ﷺ . جزاءً وفاقاً لما عمل . دعا محمد ﷺ فبادر يعلن إسلامه ، وتحمَّل فى سبيله ما تحمل ، أُذِنَ للمسلمين بالهجرة فهاجر وصبر ، ونزل ساحة الجهاد ؛ فكان نِعْمَ البطل الجَوَاد الخَيِّر الفيَّاض .

* * *

السادس : الزبير بن العوام

« إن لكل نبى حوارياً وحواريَّ الزبير بن العوَّام »

(حديث شريف)

● الزبير بن العوام فى الجاهلية :

وَمَنْ لمْ يَذِدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ يُهْدَم
وَمَنْ لمْ يَظْلِمِ النَّاسِ يُظْلَم

(من ديوان العرب)

كانت الحياة فى البيئة العربية قبل الإسلام قاسية شديدة القسوة ، ويبدو أنها كانت كذلك فى شبه الجزيرة العربية كلها ، مما أوجد هوىً فى نفوس عرب هذه البادية لقول شاعرهم زهير بن أبى سلمة :

وَمَنْ لمْ يَذِدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ يُهْدَم   وَمَنْ لَمْ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَم

والشعر ديوانهم الذى يرى فيه الإنسان مآثرهم ، وحياتهم ، وزهير هذا من الحكماء العاقلين من شعراء هذه البيئة البدوية الجاهلية .

وإذا كانت قسوة الحياة واضحة فى شبه الجزيرة العربية كلها بوجه عام ، فيبدو أنها كانت فى المجتمع المكى أكثر شدة ، وأحكم حلقات ، وكم يقرأ الإنسان بأن قبيلة عربية ، أو أحد سادتها أو سراتها ، كانوا يرسلون أولادهم للبادية حتى لا تلين جلودهم ، أو ترق لغتهم ، ثم يكون الواحد منهم فارساً ، بطلاً قوياً ، صلب العود ، خشن الملمس ، فكان هؤلاء القوم يرون بأن البادية هى التى تكسب أولادهم هذه السمات التى تحمدها لهم هذه البيئة مثل القسوة ، وشدة البأس ، وقوة البطش ، ورباطة الجأش ، وكأن هذه الصفات هى التى تخولهم مجد الحياة وسؤددها .

وكان عرب الجاهلية يُعدُّون أبناءهم ويُربونهم على أن يتكيفوا مع هذه البيئة التى سوف يواجهها العربى وجهاً لوجه .. وهذه « صفية بنت عبد المطلب » الهاشمية القرشية كانت تضرب ابنها الزبير بن العوَّام بن خويلد ابن أسد إذا جاءها يشكو أحداً من رفاقه الأطفال الذين يلعب معهم . وكان الزبير بن العوَّام يتلقى ضربات أمه دون أنين أو بكاء ، فكيف يصيح الرجال ؟ وهل يبكى الرجل فى بيئة جزء من دستور الحياة فيها :

* ومَنْ لمْ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَم *

ولم تكن صفية بنت عبد المطلب - أم الزبير - وحدها التى كانت تحرص على إعداد أولادهم على هذه الصورة ، فإذا شكا الصبى من أحد عاقبه أبواه ، وإذا هزم خصمه نال منهم المكافأة والتهنئة ، فذلك من بشائر الخير لذلك الناشىء التى تدل على أنه سيكون من ذوى المكانة المرموقة فى هذا المجتمع .

وكان العوَّام بن خويلد - والد الزبير - يعمل نجاراً ، وهذه الحرفة تطبع أربابها على الخشونة والصلابة ، فكل أدواتها ناشف جاف صلب كالخشب ، والمسامير ، والزوايا وما شابه ذلك ، كما هى أيضاً حرفة تُعَلِّم الصبر والتأمل ، والدقة ، كما تعلم صاحبها أيضاً - مهما برع - التواضع أمام صنعة اللّه كما تحكيها مظاهر الكون والحياة .

ولم تجد مهنة العوَّام بن خويلد قبولاً لدى ابنه الزبير ، كما لم تحظ عنده بالرضا ، فاختار منذ صغره أن يكون قصاباً (جزاراً) ، بضاعته فى حانوته اللحوم ، وأدواته المُدّى والخطاطيف ، والدماء تجرى من الزبائح أمام عينيه فهى حرفة أشد قسوة وصلابة من مهنة الأب ، غير أنها توجد أربابها فى مواقف يومية ، أو متعددة أمام ما يرونه فى بطون الحيوانات من مشاهدة الكبد والقلب والرئة والكُلَى ، وعلاقة ذلك بالأمعاء ، والطعام والشراب ، فيرى هؤلاء القصابون دقة وإبداع القدرة التى تبعث فى ذهن الزبير - على الأقل - إزدراء هذه الأصنام التى يعبدونها ، أو التفكير فى شىء من ذلك .

ولم تطل سنوات العمر بالزبير بن العوام فى هذه البيئة الجاهلية الجافة القاسية ، فلم يبلغ السادسة عشرة من عمره ، إلا وقد كانت مكة هائجة مائجة ، والجزيرة العربية كلها مضطربة قلقة ، بل وما حولها يتطلع أخبار ذلك الحدث الذى يُدَوِّى فى مكة ، واخترق صداه شبه الجزيرة العربية .

ولم يكن الزبير بن العوّام بعيداً عن هذا الحدث الهائل ، كما أن هذا الأمر كان أيضاً بحكم الرائد القائد المكلف بأمره قريباً جد قريب من الزبير بن العوام .

قريب منه من حيث النسب ، كما هو أيضاً قريب منه من حيث العقل والفكر ، فكانت الطريق لهذا الحدث العظيم مُعبّدة مُهيّأة إلى قلب الزبير ابن العوام . وذلك - فيما أرى - يفوق قرابة النسب التى تربط الزبير بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ المكلف بأن يُبَلّغ الحدث والرسالة إلى الناس ، فهو ابن خال الزبير بن العوام ، فصفية أمه عمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ.

كما أن خديجة بنت خُوَيْلدْ عمة الزبير بن العوام ، وهى ربة ذلك البيت الطاهر ، الذى يسكن فيه محمد بن عبد الله ﷺ ، ويجد فيه وفى خديجة الأمن والاطمئنان والهدوء والسكينة والأمان .

فكم هدّأت خديجة بنت خُوَيْلدْ من روع محمد بن عبد الله ﷺ ! وكم جلست بجواره تُدَثِرُه بالغطاء الثقيل ، وتُطَمْئِن نفسه بالقول الجميل ! وتنطلق إلى الباحثين فى الكتب الدينية تسألهم ماذا عندهم عن هذا الذى قد حدث مع زوجها الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ؟

وكيف يكون الأمر بعد ذلك ؟ تساؤلات عديدة تطرحها خديجة عمة الزبير بن العوام على ورقة بن نوفل ابن عمها أو مُنَسِّب بنى أسد قوم خديجة ، ذلك القارىء الباحث فى الديانات .

ولم يمض زمن طويل ، ولم يكن وقت التمهيد أو التهيئة طويلاً ، ثم ينزل الناموس على محمد بن عبد الله ﷺ يكلفه برسالة الدين الجديد فتكون خديجة بنت خُوَيْلدْ أول امرأة تدخل هذا الدين - ليس فى مكة وحدها - بل فى الدنيا كلها وهى عمة الزبير بن العوام ، كما أن محمداً ﷺ ابن خاله أيضاً .

يسرى ذلك الحدث فى مكة هادئاً متزناً ، بطيئاً وئيداً فى أول الأمر . نعم .. يجرى فى السر فإنه ليس حدثاً عادياً .

ولعل الزبير بن العوام كغيره من الشبان كان مشغولاً بتجارته ، وشراء الشياه والخراف ، وبيع اللحوم من الغنم ، أو الضأن ، أو من جذور ، كان يشغله عن هذا الحدث العظيم فى أول أمره على الأقل . فلعل الزبير أيضاً لم يلتق بعمته خديجة ، أو ابن خاله محمد بن عبد الله ﷺ . وهما مشغولان بذلك الأمر إلى أقصى حد يُشْغَلُ فيه بال إنسان بأمر ما . فليس أى أمر - مهما كان - كهذا الأمر ، فلعلهما مشغولان به ، كما أن الزبير ابن العوام مشغول بتجارته من بيع وشراء .

حقيقة أن الزبير فى مرحلة من العمر تتطلب استقراراً عقائدياً من الفرد ، فيعيش الإنسان تحت تأثير دوافع دينية طابعها القلق ، والبحث عن المعبود الذى يرتضيه ويجد فيه الكمال المنشود ، ولعل ذكاء الزبير بن العوام وحرفته تزيد شكوكه فيما يعبد وقومه من آلهة منحوتة من حجارة صماء جوفاء ، يطوفون حولها فى الكعبة صباح مساء .

وإلى متى يبقى ذلك القصّاب الشاب الألمعى فى هذه الحيرة المحيرة ، وتلك الدوامة المدوِّخة ؟ فى هذا المجتمع الذى له من العادات والعرف والتقاليد ما أصبح وكأنه سياج من حديد يحيط بهذه المعتقدات الباطلة التى يعبد هؤلاء القوم .

* * *

الزبير بن العوام فى الإسلام

« طلحة والزبير جارَىَّ فى الجنة »

(حديث شريف)

لم يكن الزبير بن العوام بعيداً عن الإسلام من حيث تكوينه وإعداده واستعداده ، فالزبير ذكى فطن ، والإسلام ليس هناك دين مثله يُعلى من شأن العقل ويدعوه إلى التفكير والتأمل ، وكم ثناءات فى القرآن على أولى الألباب ، يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ إنَّ فى خَلْقِ السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

وكان الزبير قوياً فى بنيته ، صلباً فى بنائه ، والإسلام دين القوة الخيِّرة البنّاءة ، يقول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف ... »

والزبير تاجر يشترى ويبيع من الآخرين ولهم ، ويعرف ما ييسر التجارة ، والنبى ﷺ يقول : « رحم الله عبداً سَمْحاً إذا باع وإذا اشترى ... » والزبير يتاجر فى اللحوم ، وإذا بقر بطن الحيوان ، ورأى أجهزته الدورية والدموية والهضمية ، رأى دلالات واضحة على بطلان الآلهة التى يعبدون ، وآمن بأن لا بد هناك رباً آخر غير اللأت والعُزَّى ومناة ، وكل هذه الحجارة التى ينحتون . كل ذلك مع أن محمداً ﷺ ابن خاله ، وخديجة أم المؤمنين الأولى عمته ، كما أن أبا بكر الصدِّيق أول مسلم فى

(١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١

مكة تاجر ، ولا بد أنه كان على علاقة بالزبير بن العوام . لذلك وغيره لم تستمر دعوة الإسلام طويلاً فى مكة إلا وقد هدى الله إليها الزبير بن العوام . وفى كثير من الروايات ذات المصادر المختلفة بأن أبا بكر الصديق حدث الزبير بن العوام عن الدعوة الجديدة التى يدعو إليها محمد ابن خاله ، والزبير يعرف صدقه ، كما يعرف أمانته - ويقول محمد على قطب : « استشعر الزبير على إثر حديث الصدّيق بأن شيئاً ما يسرى فى كيانه ، وبأن روحه ونفسه تضج فى جسده ، وبأن دماءه تكاد تنفجر وتمزق عروقه لشدة غليانها وفورانها ، ثم اتفق مع محدثه أبى بكر أن يلتقيا فى جوف الليل ليمضيا معاً إلى محمد ﷺ ... » .

وليس هناك شك بأن الزبير قضى وقت الانتظار قلقاً مضطرباً ، مفكراً فى الأمر وأثاره عليه وعلى تجارته ، برغم أنه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره .

وعندما حان الموعد وجد نفسه الصدّيق يقف مع ذلك الشاب الأسمر القوى ، معتدل القوام ، قوى البنية ذى السمات الموحية بالشجاعة ، والمهابة والأنفة والإباء والصرامة .

فمضيا إلى النبى محمد بن عبد الله ﷺ ، ولقيهما مرحباً ، سعيداً هاشاً ، ولم يطل اللقاء ، فكأن الإسلام اخترق قلب الزبير إثر استماعه لمبادىء الدين الحنيف من الرسول العظيم . فأعلن إسلامه وسعد به المسلمون ، كما حزن كفار قريش لأنهم يعرفون من هو الزبير بن العوام ؟

ثم بدأ الزبير بن العوام يتحمل تبعات الإيمان فى ذلك المجتمع الجاهلى الكافر .

فلما علم عمه « نوفل » - أو أحد أقاربه من أبيه - بأن الزبير قد

أسلم أراد أن يعدل الزبير عن ذلك حتى لا يجلب لهم ولأسد كلها العار ، فلم يجد اللين ، وكيف يُثْنَى مثل الزبير عن مبدئه ؟!

فكان عذاب الزبير بصورة قاسية مؤلمة ، فقد قيدت يديه ورجليه ولف فى حصير ثم أشعلت فيها النار ، وكاد البطل يموت مختنقاً من شدة الدخان . وبرغم ذلك بقى على إسلامه ، وكأن هذا العذاب يزيده إيماناً وإصراراً .

فماذا بعد ؟ .. لقد حُجِبَ عنه الطعام والشراب فكان الزبير يزيد من صلواته وصيامه ، فينال الأجر أجرين ، وإذا نامت عنه عيون قومه من كفار مكة فإن عين الله لا تنام .

تحمَّل الزبير ذلك ، وما هو أشد وأوجع من كفار مكة الذين كانت قلوبهم مع المسلمين كالحجارة أو أشد قسوة .

ولم يكن الزبير بأقل صبراً واحتساباً عند الله من المسلمين الأوائل فتحمَّل الأذى صابراً ، ورضى به محتسباً . نعم .. لأنه كما يروى دكتور سيد الجميلى فى مآثره : « أنه لم يسجد لصنم قط ، ولم يأت فعلاً مشيناً من أفعال الجاهلية الأولى ... » .

فكيف تلين قناته مهما بلغ عذاب الكفار له ؟! وكيف يخضع لغير الله تعالى ورسوله ﷺ ؟!

وكيف يعود إلى ظلمات الجاهلية ، وظلام الكفر وقد اهتدى إلى نور الإيمان ؟!

وكيف يلين وهو الشاب القوى ، ذو الفتوة والجرأة ؟!

ويرى أبا بكر الصدِّيق - وهو كبير السن - يصبر على هذا الأذى ، كما يرى محمداً ﷺ يتحمل من هؤلاء الكفار ما يتحمل .

ولم يكن أذى كفار قريش لأتباع محمد ﷺ وصحابته ، وهو يرى ذلك ، ويشهده على نفسه بأقل أذىً مما يلحق به من أذاهم وطغيانهم

وظلمهم . وظل ﷺ يتحمل ذلك الأذى وهو يفكر فى الأمر ، ويقَلّب الوضع على كل وجه ، ويتدبر أحوال المسلمين فيرى ضعفهم وقلتهم ، ويؤله هوانهم على الناس من أهل الكفر ، بينما المسلمون على الحق يتعبدون ، وفى سبيله يتعذبون . من قوم هم أهلهم ولكنهم كفار على الباطل يُصِرّون ، وكأن غشاوة قد ضُرِبَت على قلوبهم برغم أنهم بعيونهم يُبصرون بأن هذه حجارة صَمّاء جوفاء بأيدهم يصنعونها ، فكيف هم لها عابدون ؟!

كان النبى ﷺ يتأذى مما يراه من عذاب المسلمين واضطهادهم . فأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة حيث بها ملك عادل رحيم لا يُظلم عنده أحد .

وبرغم أن الهجرة إلى أرض الحبشة عند ذلك النجاشى العادل مرهقة مخيفة مرعبة ، فهى تتم بالبحر الذى لم يعتاده المسلمون بعد ، ولكن ليس أمام هؤلاء المظلومين غير ركوبه مهما كان صعباً فهم مضطرون .

كان أبو بكر صديقاً للزبير بن العوَّام ، وهو الآن فى ظل الإسلام أخوه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

وفيما يقوله - صابر عبده إبراهيم فى هذا المجال فى كتيب له باسم « الزبير بن العوام » - قال : « وتوثقت عرى الأخوة والمحبة بين الزبير وأبى بكر الصدِّيق . وكان يحب الزبير ، ويعطف عليه ، ويرى فيه سيما الإخلاص ، وبوارق الخير ، وعلائم القوة والشجاعة ... ذات يوم دخل الزبير على أبى بكر الصدِّيق ثم قال له : يا أبا بكر . جئتك فى أمر .

قال الصديق : خيراً .

قال الزبير : جئتك أطلب منك يد ابنتك أسماء لنفسى .

---

(١) الحجرات : ١٠ .

وفَكَّرَ أبو بكر . ثم أمعن فى التفكير ، ولما لمح موافقة أسماء أعلم الزبير بأنه يبارك مطلبه هذا ويوافق عليه .

لم يمض غير وقت قليل ، وقد جمع بيت الزوجية الزبير بن العوَّام ذلك المؤمن الفقير ، وأسماء بنت أبى بكر ذلك الثرى الكبير ، وعاش الزوجان فى هناءة ووئام . وكانت أسماء تدق النَوَى لفرس الزبير ، وتُشرف على الطعام والشراب وهى ربيبة بيت الصدِّيق وفيه الخدم والحشم والجوارى والعبيد والدعة والرفاهية .

ولما اشتد أذى كفار مكة على المسلمين أذن لهم النبى ﷺ بالهجرة إلى الحبشة عند ذلك النجاشى العادل .

وكان الزبير بن العوَّام واحداً من هؤلاء الذين نالوا شرف هذه الهجرة متحملاً ما شاء الله له أن يتحمل من هجر الوطن ، والأم ، والأهل ، والأصحاب والأصدقاء والمال والحياة ، حيث نشأ وتربى وعاش ، وكم كان يُحب مكة ويُحب حانوته فيها !

وبقى الزبير بالحبشة حتى تأكد وسعد المسلمون هناك بأن ذلك الملك النجاشى قد انتصر على خصومه الذين أرادوا منازعته فى الحكم حينئذ .

وبينما المسلمون فى الحبشة علموا بأن الله هدى عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبد المطلب إلى الإسلام ، وهم يعرفون من عمر ؟ ومن حمزة ؟ فعاد بعض المسلمين إلى مكة ، وكان من هؤلاء الزبير بن العوَّام الذى اشتاق الرسول عليه الصلاة والسلام ، واشتاق حانوته ، كما اشتاق مكة كلها . إنها وطنه وبها أهله وحياته ، ومعارفه وأصدقاؤه .

وبقى فى مكة يبيع اللحوم ، ويرى قريشاً ما زالت باقية على ضلالها وجبروتها ، تبطش بالمسلمين وتضطهدهم .

وبينما الزبير فى مكة يسرى فيها همس بأن النبى ﷺ قد قُتِل . ثم يترامى هذا إلى سمع الزبير . فيترك متجره ، وينتضى سيفه ، ويتقلد رمحه ، ويمضى هائجاً مائجاً ، يُزمجر ويُهدر وكأنه عريان - فليس عليه من الثياب إلا ما يكاد يستر عورته - . وبينما هو كذلك يقابله النبى ﷺ فيهدىء من ثورته ويسأله عن سببها فيقول الزبير للنبى ﷺ : علمت أنك أُخذت .

فيضحك الرسول سعيداً به . ويُعطيه من الثياب ما يستره .

ثم يروى صاحب الرياض النضرة (٣ / ٣٤٥) : « بأن جبريل أُنزل على النبى ﷺ وقال له : إن اللّه يقرئك السلام . ويقول لك : اقرأ منى على الزبير السلام ، وبشِّره أن اللّه أعطاه ثواب كل من سَلَّ سيفاً فى سبيل الله عز وجل »

ولعل ما تجده عند كثير من المؤرخين الذين يكتبون عن الزبير بن العوام يسمونه بأنه « أول سيف شُهِرَ فى الإسلام » أو يقولون : « بأن أول سيف شُهِرَ في الإسلام كان سيف الزبير »

ذلك لأن المسلمين فى مكة يومئذ كانوا قليلى العدد والعتاد ، تعفو قريش عنهم إشفاقاً ، أو ازدراءً ، أو إكراماً لأهلهم من الكافرين ، أو قل : هم فى حماية اللّه ربهم الرحيم .

ولم تخف حدة هذا الأذى أو تهدأ ، فأمر النبى ﷺ أصحابه بالهجرة إلى يثرب ، ونال الزبير بن العوام هذا الشرف أيضاً وتحمَّل فى سـبيل الدين ما تحمَّل . ونزل علي مقربة من « قُباء » فى بقعة يُقال لها : « العُصبة » .

وفي المدينة تحوَّل المسلمون تحوُّلاً كبيراً ، فى ظلال ذلك المجتمع الجديد الذى كان الرسول ﷺ يُعده للجهاد والنضال من أجل الحق والعدل والسلام .

وأعطى كل مسلم ما يحب ، وأبدى المسلمون بأنهم قوم جديرون بالحياة ، وأنهم أبناء هذه الأمة التى قال الحق فيها : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١) .

ولم يمض علي هجرة النبى ﷺ إلى المدينة كثيراً ، وكانت وقعة بدر الكبرى . وأبدى فيها الزبير بن العوام من الشجاعة والبطولة ما أبدى ، فقد قتل من الكفار عدداً كبيراً ، وفلّ سيفه ، وأصيب بجُرح بالغ . وفيما يرويه ابن سعد – فى طبقاته – بأنه قتل عمه نوفل بن خُوَيْلدْ ، كما أن الملائكة الذين أنزلهم الله فى يوم بدر يقاتلون مع المسلمين عدوهم وعدو الله كما تُصوّر ذلك آيات سورة الأنفال ، قال الحق سبحانه وتعالي : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ﴾ (٢) .

وكان النصر فى بدر للمسلمين ، ذلك ما يتضح فى قول الله من سورة الأنفال ، قال تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

فى ذلك اليوم . يوم بدر فى اللقاء الأول بين جيش الحق والإيمان بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجيش الباطل والعصيان ، ذلك الجيش الذى كان عدده وعتاده ثلاثة أضعاف جيش المسلمين ، وبرغم ذلك هُزِمَ هؤلاء الكفار شر هزيمة .

فى ذلك اليوم أبدى الزبير بن العوام من الشجاعة والبطولة والجرأة والإيمان ما أبدى . وكان يلبس عمامة صفراء وقد نزلت الملائكة يومئذ – كما روى ابن سعد فى طبقاته أيضاً – بعمائم صفر . فقال رسول الله ﷺ : « لقد نزلت الملائكة على سيما الزبير » .

---

(١) آل عمران : ١١٠ . (٢) الأنفال : ٩ - ١٠ . (٣) الأنفال : ٧

بطولة فذّة ، وجهاد أبطال مؤمنين ومكافآت سخية وعطاء من رسول كريم ورب رحيم . فهنيئاً أيها البطل المسلم المؤمن العظيم حوارى رسول الله ﷺ .

وقد شهد الزبير بن العوام جميع الغزوات مع رسول الله ﷺ . وأبدى من البطولة ما أبدى ، أبدى ما أرضى رسول الله ﷺ عنه ، فقد شهد يوم أحد وكان من الذين حوّلوا هزيمة المسلمين فى وسط المعركة إلى نصر محقق .

كما قد شهد يوم حنين ، وألقى الرعب فى قلوب الكافرين ، وقتل منهم خلقاً كثيرين .

وقاتل بنى قُريظة ، وشهد خيبر ، وفتح مكة ، وكان دائماً يحظى برضا رسول الله ﷺ حتى مات وهو عنه راض . درجة عالية ، وشهادة غالية ، ومنزلة سامية لا ينالها إلا قليلون . من أمثال الزبير بن العوام .

لم يكن جهاد الزبير بن العوام فى الإسلام ومن أجل هذا الدين الحنيف فى عهد الخلفاء - أبي بكر الصديق ، والفاروق عمر ، وعثمان - بأقل مما كان فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

فقد كان قائد أحد جيوش الصدِّيق فى محاربة المرتدين وتوجه بجيشه إلى الشام ، وتحقق على يده النصر فى معركة اليرموك ، وقد أُصيب فيها بأذىً بالغ . ولكن متى اشتكى الزبير بن العوام من إصابة من أجل الإسلام ؟!

وكيف يشتكى وهو تلميذ محمد ﷺ ، وقد تربى علي مائدة القرآن الكريم ؟!

وفى عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب أُرسل الزبير بن العوام مدداً للقائد عمرو بن العاص وهو يفتح مصر ، وكان الروم قد أعدوا حصناً قوياً منيعاً عالياً - ذلك الذى يعرف بحصن بابليون - وقد استمر حصاره وقتاً

طويلاً يُقال : زهاء مائتى يوم أو يزيد ، وقد فُتِحَ هذا الحصن بفضل ذكاء الزبير . فوضع خطة فتحه وشجاعته بتسلقه ، وقهر الروم بداخله فأذهلتهم المفاجأة وسقطت قلوبهم عند أقدامهم . وعرف المسلمون وأعداؤهم منزلة الزبير .

وتوفى الخليفة العادل عمر بن الخطاب وهو راض عن الزبير بن العوام ، وليس أدل على ذلك بأن رشحه من الذين يختار المسلمون خليفتهم من بينهم .

ولكن المسلمين اختاروا عثمان بن عفان ، وعندما تذمر الناس ضده كان عبد الله بن الزبير مُوفداً من والده يدافع عن الخليفة عثمان ، ولكن قضاء الله كان قدراً مقدوراً فَقُتِلَ عثمان ، وأسلم الروح لبارئها .

وفى عهد علىّ بن أبي طالب استمر الزبير يرقب الأحداث وكأنه يريد شيئاً ، وكانت الفتن والدسائس تسرى بين صفوف المسلمين مسرى النار فى الهشيم حتى وصل الأمر بأن يتقاتل المسلمون ، ترى فى فريق منهم الزبير ابن العوام ، وفى الآخر علىّ بن أبى طالب . ابن عمة رسول الله وابن عمه يتقاتلان . ما أقبح فعل الشيطان ، وما أمهر أعداء الله والإسلام .

إرادة الله .. يُذَكِّر على بن أبى طالب خليفة المسلمين الزبير بن العوام ابن عمته بشىء من التاريخ . فيترك الزبير القتال ويتوجه إلى المدينة . ثم يقف فى الطريق ليُصلى فيراه عمرو بن جُرموز التميمى فيطعنه من الخلف . ثم يدفنه بوادى السباع – وهو موضع قريب من البصرة – وكان عمره زهاء خمس وستين عاماً فى أصح الروايات المتواترة .

يعلم الخليفة علىّ بن أبى طالب ذلك النبأ الحزين ثم يقول : « بَشِّروا قاتل الزبير بالنار »

صورة مشرقة للبطولة الإسلامية ، شجاعة وجرأة ، فتوة وإقدام ، تضحيات فى سبيل الحق ، ومن أجل الحق ، منذ الصبا وحتى أسلم الروح إلى خالقها .

إنه الزبير بن العوَّام ، صاحب أول سيف سُلَّ فى الإسلام « وهو ركن من أركان الإسلام » كما قال عنه : الفاروق عمر بن الخطَّاب . وقال عنه رسول الله ﷺ : « .. والزبير فى الجنة ورفيقه إسماعيل » .

فهل لنشء العروبة والإسلام ؛ هل لهؤلاء الأحفاد أن يقتدوا بهؤلاء الأجداد الأمجاد لعلَّهم يهتدون فيقتدون ، وللمجد العريق التالد لأمتهم يسترجعون .. وليس على الله محال ؟!

* * *

السابع : عبد الرحمن بن عوف

« سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة »

(حديث شريف)

● عبد الرحمن بن عوف فى الجاهلية « عبد الكعبة » :

لا يهمنا كثيراً أن يعرف القارىء بأن عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب قرشى زُهرى ، وأن أمه كانت أيضاً زهرية النسب وهى : الشفّاء بنت عوف بن الحارث . ليس ما يهمنا هذا الذى يذكر فى « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ، ومثله أيضاً ما ذكره بأن ميلاده كان بعد عام الفيل بعشر سنوات .

وإنه شريف النسب ، كريم الحسب .

ومما يهم أكثر مما سبق بأن اسمه فى الجاهلية كان عبد عمر ، أو عبد الحارث ، أو عبد الكعبة .

ذلك حيث يعطى دلالة للقارىء بأن هؤلاء العرب فى جاهليتهم كان الآدمى يُسمى بالعبودية لهم ، مهما كان شرفه ، وحسبه ، ونسبه ، أو حتى يكون عبداً لموضع يضم أصنامهم . وكان ذلك العربى واحداً من هؤلاء الذين حملوا هذا الاسم فكان عبداً لعمر ، أو الحارث ، أو الكعبة . موطن الآلهة ومركز الأصنام فى الجاهلية .

وكان العرب يأتون إليها من كل مكان : من نجد ، أو العروض ، أو مكة ، أو نجران .. يطوف هؤلاء القوم حول أصنامهم ويُصَلُّون لها ، ويُقَدِّمون لها القرابين ، ويتعصبون لها كل عصبية عمياء .

وكانت منطقة مكة - حيث بها الكعبة - أكثر أجزاء شبه الجزيرة العربية صلاة لهذه الأصنام من تلك الحجارة الجوفاء الصماء ، ولكنها آلهتهم ومعبوداتهم التى ورثوا عبادتها فقلدوا أهلهم .

وكان هذا المجتمع الجاهلى له دستوره الذى استقاه هؤلاء الجاهليون من أعرافهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، الخير ما يرونه خيراً حتى ولو كان قتل أبرياء ، أو سفك دماء وسبى نساء ، يكاد لسان حالهم ما قاله شاعرهم زهير بن أبى سلمى :

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ يُهْدَمِ ... وَمَنْ لَمْ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

هذا هو المجتمع الجاهلى الذى وُلِدَ « عبد الكعبة » بطلنا هذا فى بقعة منه ، تقيم فيه قبيلة زُهرة ، قوم أبيه وأمه . كما إنه كان يملك فى هذا المجتمع داراً ، وكان هو ثرياً لأنه كان تاجراً ناجحاً ، فلا بد أن هذه الدار كانت دار ثراء وسعة لأنها دار رجل من سُراة العرب ، وواحد من أغنيائهم .

وكان « عبد الكعبة » يحب هذه الدار ، ويُسرف فى إظهارها بالمظهر اللائق بوضعه الاجتماعى ، ومكانته بين القوم - ليس فى مكة وحدها - بل فى الجزيرة العربية كلها .

ولم يُطق « عبد الكعبة » أن يعيش بعيداً عن هذه الدار مدة طويلة من الزمن حيث فيها الخدم ، والحشم ، والجوارى والعبيد ، فهى مقر الدعة ، وفيها كل سعة ، فيها الرفاهية والهناءة ، كما فيها البذخ والسعادة . فكيف يحب إنسان أن يبتعد عن مثل هذه الدار وارفة الظلال ؟!

بينما يعيش « عبد الكعبة » فى هذه الدار ، تسرى فى مكة أخبار عن دعوة جديدة ، تبشر بدين جديد ، يدعو إلى عبادة غير ما ألف هؤلاء القوم من عبادة اللات والعزّى ومَنَاة . دين جديد يدعو إلى عبادة الله الواحد لا أصنام متعددة ، الله رب هذا الكون الخالق لكل شىء ، وقالوا إن أبا بكر بن أبى قحافة - ذلك التاجر الثرى من تيم - قد آمن بهذا الدين الجديد الذى يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ فى مكة سراً .

بدأ « عبد الكعبة » يفكر في هذا الدين الجديد ، وتتتابع التساؤلات فى رأسه عن هذا الدين الجديد . إلى أى شىء يدعو ؟ وما مبادىء هذا الدين ؟ ومن أين أتى به محمد الأمين ؟ وكيف تقبل قريش ديناً يسب آلهتها ؟ وهل تسكت عن محمد ابن عبد الله ؟

وهل حقيقة أن أبا بكر آمن بهذا الدين ؟ وهل ذلك يؤثر على تجارته ؟

أسئلة تترى ، وتساؤلات تتابعت على فكر « عبد الكعبة » عن هذا الدين الجديد .

* * *

عبد الرحمن بن عوف فى الإسلام

فيما روى الدارقطنى أن رسول الله ﷺ سمى عبد الرحمن ابن عوف : « الصادق البار » .

التقى عبد الرحمن بن عوف بأبى بكر الصدّيق وأخذ يسأله عن الدين الجديد الذى يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ . وعرض عليه أبو بكر الأمر وكان ذكياً هادئاً دقيقاً .. كاد ابن عوف يرى الصدق فى قوله .

ثم انطلقا إلي محمد بن عبد الله ﷺ ، وأسلم ابن عوف وسمّاه النبى من يومها « عبد الرحمن » . فليس فى الإســلام عبيد لغير الله تعالي . وكأن عبد الرحمن بن عوف كان يبحث عن ضالته المنشودة فى هذا الدين الجديد .

وجد فى محمد ﷺ الرائد الحق ، والداعية إلى الحق ، كما وجد فى الدعوة ذاتها الإنسانية كما فطرها الخالق سبحانه وتعالى . وانخرط عبد الرحمن بن عوف فى هذا الدين الحنيف ، يغترف من تعاليم القرآن الكريم ، والرسول العظيم يعبها عباً ، ويعطى هذا الدين الذى ملأ وجدانه ، وأصبح كل كيانه ، كل ما يستطيع من عطاء فى رضا كامل ، وسخاء جميل ، ويتحمل فى سبيل الإسلام ما يتحمل بنفس راضية مطمئنة سعيدة هانئة ،

قد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى الحبشة حيث بلغ أذى كفار قريش للمسلمين ذروته . وتكبّد فى ركوب البحر ما تكبد ، وتحمل فى ترك الأهل والوطن ما تحمّل .. ولكنها تبعات الإيمان ، ومقاومة الظلم والطغيان . وكفار قريش قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ،

ولم يبق عبد الرحمن بن عوف فى الحبشة طويلاً ، ثم عاد إلى مكة ،

فوجد كفار قريش قد زاد أذاهم للمسلمين ، مما أوجب على النبى ﷺ بأن يأذن للمسلمين بالهجرة إلي يثرب . فهاجر هذا البطل إلى ذلك المجتمع الجديد متحملاً مشقة السفر ، وعنت الطريق فى هذه الصحارى ، وتلك الجبال ، وفيها ما فيها من مخاطر ومشقات .

وعندما بلغ عبد الرحمن بن عوف يثرب ، ونزل على أخيه سعد بن الربيع ، فعرض عليه سعد نصف ماله وثروته . فأثنى عليه عبد الرحمن بن عوف وشكره وقال له : لا أريد إلا أن تدلونى على سوقكم ، أين سوقكم ؟ قال ذلك فى إباء ، وعزة ، وفكر ، وروية .. وهو تاجر يعرف كيف يشترى ؟ ومتى يبيع ؟ إنه فن التجارة ومهارة التجّار ، وخبرة عبد الرحمن بن عوف فى هذا المجال خصبة غنية .

ثم بلغ السوق سوق وباع واشترى فكان تاجراً مطبوعاً ، فيه الفطنة والأمانة والصدق . يتحلى بالسماحة إذا باع ، والتسامح إذا اشترى . أدّى ذلك فى أدب وذكاء ولباقة فكسب كثيراً ، وحقّق مالاً وفيراً ، ونال إعجاب التجار ، وثقة الناس جميعاً ، فكان نِعْمَ التاجر المؤمن كما يرجوه الناس ، والإسلام .

ولم يمض وقت طويل ، وقد أصبح عبد الرحمن بن عوف من أثرى أثرياء شبه الجزيرة العربية ، وله قوافل تجارته الخاصة . وهو يمارس نشاطه التجارى لم ينس دنياه فيأخذ منها كل مباح مشروع حلال . كما يتذكر دائماً الآخرة ، ولم يغب الموت عن باله أبداً ، فكان كريماً جواداً .. ومما يذكر فى أسباب نزول قول الله تعالى من سورة البقرة : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلاَ أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [1] .

---

(١) البقرة : ٢٦٢

يُذكر فيما يذكره بعض المفسرين بأن ذلك قد نزل فى عبد الرحمن بن عوف ، فأى شرف عظيم لهذا الصحابى الجليل . إنه واحد من أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [1] .

وقدّم من المكارم والجود نماذج إنسانية سامية فى ظل الإسلام الكريم .

وقد شرع عبد الرحمن بن عوف يشارك فى الجهاد الإسلامى ، فشهد بدراً أول معركة يخوضها المسلمون بعد الهجرة ، وأبدى فيها صورة للمجاهد الصابر ، والمقاتل الشجاع .

وكان فى يوم أحد من الذين التفّوا حول النبى ﷺ وثبت فى المعركة ثباتاً انتزع للمسلمين النصر من بين أنياب هزيمة كادت تقع ، لولا هؤلاء المؤمنين الأشداء الذين أظهروا من البطولة والتضحية والفداء ما أذهل عدوهم ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، ومن هؤلاء المجاهدين الأشداء ذلك البطل عبد الرحمن بن عوف ، وقد أُصيب فى هذه الغزوة بأكثر من عشرين جرحاً ، كان أكثرها مؤلماً قاتلاً . كما أُصيب أيضاً فى إحدى رجليه إصابة جعلته يعرج بعد ذلك اليوم وإلى آخر حياته ، فكان ذلك بمثابة طوق قد قلّده التاريخ لذلك البطل مدى الحياة ، أو هو ما نسميه اليوم بذلك النوط العسكرى ، نوط الشجاعة والشرف ، أو هو وسام المجد وقد وهبه التاريخ لهذا البطل العظيم . وكأن هذا النوط كان دافعاً له ليعطى المزيد من البطولات ، ويُقَدِّم الكثير من التضحيات كما شهدت له بذلك المشاهد والغزوات .

وكان القائد العظيم ﷺ يثق فى البطل عبد الرحمن بن عوف ثقة كبيرة ، وليس هناك أدل على هذه الثقة بأن محمداً ﷺ قد أرسله فى شهر

---

(١) الأحزاب : ٢٣

شعبان من العام السادس للهجرة إلى « دومة الجندل » وكان علي زهاء سبعمائة ، ثم قال له رسول الله ﷺ : « سر باسم الله » .

وهدى الله على يديه خلق كثيرين منهم ذلك النصرانى « الأصبغ بن عمرو » وكان سيداً فى قومه ، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنته « تُماضر بنت الأصبغ » كما أمره رسول الله ﷺ . وأنجب منها عبد الرحمن بن عوف ابنه « أبا سلمة » .

وفيما يُروى - بالرياض النضرة - عن المغيرة بن شعبة بأن عبد الرحمن ابن عوف كان له فى غزوة تبوك سمات مميزة ، ودرجات عالية ، فكانت شبه الجزيرة العربية فى العام التاسع للهجرة تمر بأزمة اقتصادية مما سُمِىَ هذا العام ب « عام العُسرة » للضيق وشدة الأزمة ، وبرغم ذلك لا بد أن يرد المسلمون على الروم بما يكبح جماح تمردهم ، ويكسر حدة تحديهم ، ويؤمّن الحدود الإسلامية المقابلة لهم - أى المجاورة . وقد نمى إلى علم النبى ﷺ بأن الروم يجهزون أنفسهم فى جيش كبير لغزو المسلمين . فأعلن النبى ﷺ عن هذه الغزوة على غير عادته فى كتمان سر الحرب ، ودعا إلى تجهيز هذا الجيش وحث أغنياء العرب على التبرع لهذه المعركة .

فتبرع عثمان بن عفان بمال كثير ، وكذلك العباس ، وطلحة بن عبيد الله ، وقدّم أبو بكر الصدّيق كل ما يملك ، حتى نساء الصحابة تبرعن بحليهن ، وأمَّنَ عليه الصلاة والسلام المدينة ، وأعد الجيش .

ولم يحظ أحد من الصحابة بما ناله عبد الرحمن بن عوف ، فقد جاد بمال كثير وشارك فى المعركة ، وقد صلّى بالجنود إماماً ، وكان الرسول ﷺ يتوضىء فصلى الركعة الأخيرة وراء عبد الرحمن بن عوف ثم أتم صلاته ، وقال - كما روى عن المغيرة بن شعبة - : « ما قُبِضَ نَبِىٌّ حتى يُصَلِّى خلف رجل صالح من أمته » .

فأى عطاء هذا من عبد الرحمن بن عوف ؟! وأى شرف يناله ذلك الصحابى الجليل فى هذه المناسبة ، إنه لذو حظ عظيم .

وكم يجد المسلم من دروس ، وعظات وعبر فى ذلك الموقف لهذا البطل ، فالغنى يجود بالمال فى كرم وسخاء ، والقوى يجاهد إذا دعا داعى الجهاد ، والمسلم يجتهد ، فهذا الرسول ﷺ يغبط صحابته حيث أدُّوا الصلاة لوقتها ولم ينتظروه .

دخل عبد الرحمن بن عوف الإسلام بعقله وقلبه ، وأحب الرسول ﷺ حباً ملأ وجدانه ، واستولى على كيانه . وعبد الرحمن من معدن كريم ، والرسول ﷺ قال : « الناس معادن .. خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » . وقد شمَّر عبد الرحمن بن عوف عن ساعد الجد يريد أن يتفقه فى دين الله فلازم النبى الكريم ، وغرف من فقه النبوة ما شاء الله له أن يغترف . وهو يضع نصب عينيه قول الحبيب محمد ﷺ : « من يرد الله به خيراً يُفقهه فى الدين »

اغترف من هذا الفقه النبوى الفيَّاض حتى إنه رضى الله عنه كان يُفتى فى حياة رسول الله ﷺ .

وهو الذى أفتى الفاروق عمر بن الخطاب فى أمر طاعون عمواس بالشام عندما قال عبد الرحمن بن عوف : إن عندى من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ قال : « إذا وقع بأرض بلاء فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها » .

وأفتى عمر أيضاً فى حد الخمر .. إنه عطاء ربك يهبه من يشاء من عباده .

وكان عبد الرحمن يخاف الله ويستحضر الموت فى كل لحظة وحين ، ففيما يرويه ابن سعد فى طبقاته : كان عبد الرحمن بن عوف صائماً ، فلما

أُتى له بالطعام قال : « قُتل مُصعب بن عمير ، وهو خير منى فَكُفِّنَ فى بُرْدَهُ ، إن غُطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غُطى رجلاه بدا رأسه . وقتل حمزة وهو خير منى ، فلم يوجد له ما يُكَفَّن فيه إلا بُرْده .. ثم بسط الله لنا من الدنيا ما بسط ، وأعطانا من الدنيا ما أعطينا ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عُجلت لنا » . ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام .

وكيف لا يفعل عبد الرحمن بن عوف ذلك وكان دائماً يستمع إلى الرسول ﷺ وهو يقول : « أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم لله ، وأتقاكم له » .

نعم .. إنه يخاف الله ، وهو مُبَشَّرٌ بالجنة ، وهو الكريم الجواد السخى المعطاء ، ففيما رواه ابن سعد أيضاً بأن عبد الرحمن بن عوف باع أمواله من سهمه فى بنى النضير من « كيدمه » بأربعين ألف دينار ثم قسمها على أزواج النبى ﷺ .

وكان يتصدق من ماله بسخاء . ففيما يُروى عنه من ابن عباس رضى الله عنهما : « وردت قافلة من تجارة الشام لعبد الرحمن بن عوف فحملها إلى رسول الله ﷺ . فأنفقها على المسلمين فدعا له بالجنة ، ثم نزل جبريل وقال : أقرىء عبد الرحمن السلام وَبَشِّرْهُ بالجنة »

نعم .. يفعل عبد الرحمن بن عوف ذلك لأنه يعلم بأن الله فى سورة القصص حث عليه قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (1) ، والإسلام دين الحرية البناءة فحارب الرق ، وفتّح أبواب الحرية ، وفطن عبد الرحمن بن عوف إلى ذلك فكانت له أيادبه البيضاء ، فيروى - محمد على قطب - عن جعفر بن برقان قال : « بلغنى أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أعتق ثلاثين ألفاً من العبيد » .

نعم .. يفعل ذلك فقد فهم الإسلام ، ومارسه سلوكاً ، واستمع إلى النبى ﷺ وأشربه أقواله ، ورأى أبا بكر الصدِّيق يعتق العبيد بعد أن يشتريهم من حر ماله . فكيف لا يفعل ذلك عبد الرحمن بن عوف ؟

---

(1) القصص : ٧٧

هذا هو عبد الرحمن بن عوف ذلك التاجر الثرى ، ظل يُعطى الإسلام فى سخاء منذ أسلم حتى بلغ من العمر زهاء خمسة وسبعين عاماً ، تحمَّل فى سبيل الإسلام ما تحمَّل ، وأعطى من ماله ما أعطى ، تحمَّل راضياً صابراً ، وأعطى كريماً سخياً ، وأسلم الروح للّه خالقها خائفاً من عقاب اللّه ، يوازن بينه وبين مصعب بن عمير ، وحمزة رحمهما الله ، فيبكى بكاء طويلاً . برغم ما أعطى وهو يعلم بأن الحسنات يُذهبن السيئات .

وقد دُفن جثمانه الطاهر بـ « البقيع » وصلَّى عليه عثمان تنفيذاً لوصيته التى أوصى بها ، فلم يترك من ماله درهماً ولا ديناراً إلا كتبه للفقراء .. ما أعظم الإسلام تأثيراً فى القلوب ! وما أروع عبد الرحمن بن عوف .

رحم اللّه ابن عوف رحمة واسعة ، إنه كما قال عنه رسول اللّه ﷺ : « أمين فى أهل السماء ، وأمين فى أهل الأرض » .

وقد أطلق عبد الرحمن بن عوف يده فى ماله يجود فى سخاء لأن رسول اللّه عليه الصلاة والسلام قال له : « يا بن عوف ، إنك من الأغنياء ، وإنك ستدخل الجنة حبواً ، فأقرض اللّه ، يُطلق لك قدميك » فأقْرِض اللّه - كما رأيت - قرضاً حسناً . لعل ذلك يُطلق قدميه .

رحم اللّه عبد الرحمن بن عوف . فقد كان نموذجاً للكرم والسخاء لمن يريد أن يقتدى به من الأغنياء الأثرياء . كما كان قدوة رائدة للتاجر الماهر الصدوق السمح الأمين فى البيع والشراء والجود والسخاء ، والعزة والإباء ، وإدارة التجارة فى دقة ومقدرة يجد فيها كل مسلم المثل الصالح ، والقدوة الطيبة والنموزج الإسلامى المشرف للمسلم الواعى الكَيِّسِ الفَطِنِ .

وإنه لقدوة فى الجراءة والشجاعة والإقدام فى الجهاد والغزوات والجود بالروح فى تضحية وفداء .

وإنه لنموذج يُحتذى فى الصبر وقوة التحمل فى رضا مهما كانت البأساء ، ومهما بلغت الضَرَّاء ، فكان المؤمن الشاكر الصابر دوماً .

هذا نموذج من أجدادك المسلمين الأوائل ، فلماذا أيها الفتى العربى والمسلم لا تترسم خطاهم فتأخذ من الدنيا ما أعطته ، وتكون فيها عزيزاً كريماً فطناً لبيباً كما كان عبد الرحمن بن عوف . وتعطى لربك ، وأهلك ، وأخوتك من المسلمين ما أعطى عبد الرحمن بن عوف ، وتحب الله ، وتخافه كما كان عبد الرحمن بن عوف ، وتحب رسول الله ﷺ كما أحبه ولازمه عبد الرحمن بن عوف .

وإذا كان عليه الصلاة والسلام قد لزم مثواه الأخير فهذا القرآن دستوره ، وهذه سنته ﷺ ، فلماذا لا تلازمهما كما لازم عبد الرحمن بن عوف صاحبها ؟ ومتى تطبقها ومبادىء كتاب الله ، كما كان عبد الرحمن بن عوف يطبقها ؟ وهل أبناء الإسلام يجدون صعوبة أو مشقة فى تقديم هؤلاء الأبطال فى مجالات التربية والتعليم ، والإعلام للنشء لعلها تكون نماذج على نهجها يسير فيهتدى !

هذا هو عبد الرحمن بن عوف المُبشَّر بالجنة ورفيقه بها إسماعيل كما قال رسول الله ﷺ .

وإنه الجزاء الجميل من الله الرءوف الرحيم الكريم ، يبُشَرَّ به محمد ﷺ الصادق الأمين ذلك الصحابى الصابر المحتسب عبد الرحمن بن عوف .

* * *

الثامن : سعد بن أبى وقاص

« هذا خالى فليرنى امرؤ خاله »

(حديث شريف)

نام سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة .... القرشى - ذلك الذى اشتهر بسعد بن أبى وَقَّاص فكان أبوه يُكْنَى بـ « أبو وقَّاص » - نوماً عميقاً بعد يوم عمل فيه عملاً شاقاً فى صناعة السهام .

وبينما سعد يستغرق فى النوم العميق ، يرى فى منامه ما تحكيه ابنته عائشة عنه قالت : إن أبى قال : رأيت فى المنام كأنى فى ظُلمة لا أبصر شيئاً ، فإذا قمر يضىء جوانب الدنيا فاتبعته ، فكأنى أنظر إلى من سبقنى إلى ذلك القمر فأنظر إلى زيد بن حارثة ، وإلى عليّ بن أبى طالب ، وإلى أبى بكر ، وكأنى أسألهم : متى انتهيتم إلى ههنا ؟ قالوا : الآن .

رأى سعد هذه الرؤية فى الجاهلية قبل أن يدخل فى الإسلام ، بينما كان هؤلاء الذين رأى فى منامه : هذا زيد بن حارثة وهو مولى محمد بن عبد الله ﷺ الذى أهدته خديجة بنت خُوَيْلِدَ إياه يوم زواجها منه ، وهو عربى كريم من بنى « كلب » وقد أسره بنو « القين » فى غارة لهم على قومه . وآثر زيد البقاء مع محمد بن عبد الله ﷺ على الذهاب مع أبيه وقومه ، فلم يذهب معهم حين أرادوه ، أما عليّ بن أبي طالب ، وأبى بكر الصديق ، فهما عَلمان فى مكة وشبه الجزيرة العربية ، وهؤلاء الثلاثة قد سبقوا « سعداً » إلى الإسلام فكلهم من المسلمين وإن تعبدوا سراً فصلُّوا فى الخفاء بين شِعاب الجبال ، أو فى الظلام ، أو بين الجدران ، وكذلك قرأوا القرآن .

وليس هناك ثمة شك بأن سعداً فَكَّرَ فيما رأى ، وكيف لا يفكر ؟! وهو الفطن الذكى ، ولعله فَكَّرَ فيما فَكَّرَ فيه : ما هذا الظلام الذى يسير فيه ؟ وهل

اهتدى إلى أنه ظلام الجاهلية الأولى ، وتلك الغشاوة التى حجبت العقول أن ترى الله الحق ، وتعبد الّلات ، والعُزّى ، ومَنَاة ، وهى حجارة بكماء جوفاء ، أو اهتدى إلى شيء آخر ؟ لربما تكون عبادة هذه الأوثان أصبحت عادة مألوفة لدى القوم فلم يروا فيها ظلاماً ، ولا ظلمة . ولا بد أن سعداً الذكى فَكَّرَ : ما هذا القمر المنير الذى يضىء جوانب الدنيا ؟ . وليس هناك شك بأنه لم يجر بذهنه بأنه نور الإسلام يدعو إليه محمد بن عبد الله الصادق الأمين . لا يخطر ذلك بذهن سعد برغم كثرة ما خطر عليه لربما يكون كذلك . ويسأل من رأى لأنه يعرف هؤلاء جميعاً : أبا بكر وعلياً وزيد بن حارثة . ولكنه سؤال النائم المستغرق فى نومه ، فإذا استيقظ منه لم يجد غير نفسه وقد لفتها حيرة محيرة، ودهشة مذهلة من وراء ذلك المنام هى بلا شك قد ألَمَّت بسعد بن أبي وقّاص عقب ذلك المنام الذى رأى فيه ما أقلقه ، وحيَّره ، قلقاً شديداً وحيرة مرهقة ، وليس لسعد أو غير سعد على الأحلام سلطان ، أو ما يرى فى منامه الإنسان كيف يكون له عليه سلطان ؟

ولم يستمر سعد فى حيرته هذه طويلاً ، فها هو ذا أبو بكر بن أبى قحافة يلتقى بسعد بن أبي وقاص وكلاهما يعرف الآخر من زمن طويل ، ويتحدثان ثم يتطرق أبو بكر إلى الحديث عن الدين الجديد الذى يُبشر به محمد بن عبد الله ﷺ فيسأل سعد أبا بكر بن أبى قحافة : أمحمد الصادق الأمين ؟ فيرد أبو بكر : نعم . ويستمر أبو بكر فى حديثه عن الدين الجديد وما يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ من عبادة الله رب الأرض والسماء ، وترك عبادة هذه الأوثان البكماء ، وإن محمداً ﷺ يدعو لذلك بأمر من الله . ويُنهى حديثه بدعوة سعد إلى هذا الدين ولقاء محمد الأمين ، حتى يسمع منه الخبر اليقين .

ويقبل سعد الدعوة . ويذهب مع أبى بكر إلى لقاء محمد بن عبد الله ﷺ ويستمع إليه ، ويعرف منه بأن أبا بكر وعلياً وزيد بن حارثة قد أسلموا كما أسلمت خديجة بنت خُوَيْلدْ . ويذهب فكر سعد فيما رأى من قبل فى منامه ، ويُصغى إلى الرسول ﷺ فيعرف مبادىء الإسلام ، وإذا كان كلام أبى بكر قد

اقشعر له جلد سعد فإن كلام النبى ﷺ قد مس قلبه ، وحرك وجدانه واقترن بعقله وفكره ، فأعلن إسلامه ، وكأنه قد انتُشِلَ من ظلام .

شرع « سعد » يصلى صلاة الإسلام ، ويلتقى بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ويغترف فى كل يوم جديداً مفيداً من علوم القرآن وسنة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويرى أنه أصبح مع جمع قمر المنام .

وكانت « حنمة بنت سفيان بن أمية » - أم سعد - أول من فطنت إلى تلك المتغيرات التى طرأت على ابنها فى أوقات طعامه وشرابه ونومه ويقظته ، وما تراه من أشياء عجيبة غريبة عليها ، كما تراه حين يؤدى الصلاة . وقد سألت « حنمة » سعداً عم يفعل ؟ فأخبرها بأنه يُصَلِّى على الدين الجديد ، فقالت له : هل تركت دينك ، ودين آبائك وأجدادك ؟ ثم قالت : لتتركن هذا الدين أو لأمتنعن عن الطعام والشراب حتى أموت ، فيُعيرك الناس بموتى ، وتلحق بك معرّة الأبد !!

وكان سعد يحب أمه ، ويبرها ، ويحترمها فقال لها : لا تفعلى يا أم ..... لا تفعلى . لأنك لا تعرفى شيئاً عن الدين الجديد ! فإننى لن أترك هذا الدين بعد أن هدانى الله إليه .

واستمرت الأم على ترك الطعام والشراب حتى هدّها الجوع وأهزلها ، وكاد العطش يهلكها . وأصبحت فى خطر شديد .

وطلب القوم من « سعد » بأن يذهب إليها ليته يرق لها ويستجيب لطلبها . - وسعد يحب أمه ، ويبرها ، ويرجو لها الخير - فذهب سعد ، ورأى أمه على أسوأ حالة ، ورق لها قلبه ، ولكنه قال لها : اعلمى يا أمى أنه لو كان لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى . فارجعى إلى طعامك وشرابك . وفى هذا علاجك مما ألمَّ بك .

هذا هو إيمان سعد بن أبى وقّاص ، وهذا هو رب محمد ﷺ ، الذى قد آمن به سعد يُصوِّر موقف سعد هذا فى سورة لقمان ، قال

تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْه أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ (١)

ما أعمق إيمان سعد ! وما أروع مبادىء الإسلام !! فما أعدله بالوالدين وما أبره دين !! إنه دين الفطرة الصافية النقية ، إنه دين الله الحق ، فإذا مس القلوب حوّل أصحابها شيئاً آخر . وما أسعد سعداً وهو ينزل فيه من عند الله قرآن كريم .

وفيما رُوى عن محمد ﷺ : بينما كان يجلس بين أصحابه يتحدث معهم ، ويعظهم فقال لهم : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . ولم يمض طويل وقت حتى طلع عليهم سعد بن أبى وقّاص . فعلم أصحاب النبى ﷺ أنه هو المراد بقول الرسول الكريم . وقد تقدّم عبد الله بن عمرو بن العاص من سعد بن أبى وقّاص وقال له : ماذا تفعل حتى فزت بهذه المنزلة العظيمة ؟ قال سعد : والله إنى لا أزيد على أحدكم فى عبادته ، ولكنى لا أنام وفى قلبى حقد على أحد . فما أسعد قلب سعد !

فما أبسط الإسلام ! وما أيسره ؟ إنه دين واضح لا غموض فيه . دين الفطرة السوية ، والإنسانية السامية ، فلا حقد فيه ولا بغضاء ، وعباداته طهارة للقلب والبدن ، وخير الفرد فيه للجميع ... فالمؤمنون إخوة .

فهم سعد الإسلام ، فكان كما رأيت ، رحم الله سعداً ، لأن الإسلام ملأ قلبه ، وكان كل كيانه مع أصحاب رسول الله ﷺ فى أول أمر الدعوة ، يصلون سراً وفى الخفاء بين شعاب الجبال ، أو منحنيات الوديان ، أو بين أربعة جدران لا تجمع سواهم ، أو تحت جُنح الظلام ، حتى لا يراهم كفار قريش الذين يناصبون محمداً ﷺ وصحبه العداء والخصام ، إنهم يسبون اللّات والعزّى ومَنَاة وهى آلهتهم التى توارثوا عبادتها عن أبائهم وأجدادهم ، فأصبحت

(١) لقمان : ١٤ - ١٥

عبادتها عادة من عاداتهم الخاطئة ، وواحداً من معتقداتهم الباطلة فمن يمس هذه الأوثان يجرح عواطفهم ، وكأنه يُسفه أحلامهم وأفكارهم ، وبينما سعد بن أبى وقّاص ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلون فى شعب من شعاب مكة ، إذ عصابة من كفار قريش يرونهم ، ويقال : كان من هذه العصابة أبو جهل . فنهر هؤلاء المسلمين ، وسألهم عن رأيهم فى آلهة الآباء والأجداد - اللّات والعُزّى ومَنَاة - فسمع ومن معه ما لا يُرضيه ولا يُسعده . وسرعان ما نشب بين الفريقين القتال ، هؤلاء يدافعون عن أنفسهم ، وللإسلام رب يحميه . وأولئك الكفار يدافعون عن آلهتهم البكماء . ثم اشتد القتال فضرب سعد بن أبى وقّاص رجلاً من هؤلاء الكفار بعظمة جمل فشج رأسه وأراق دمه ، فكان هذا أول دم أريق فى الإسلام .

فكان سعد بن أبى وقاص أول من أراق دماً فى الإسلام ، ويومئذ كان المسلمون قلة قليلة مستضعفة ذليلة فى مكة ، يؤدون شعائر الدين فى الخفاء ، يستهين بهم المجتمع المكى ولا يعلم كفار مكة قدرهم عند الله !! والقائد الرائد محمد ﷺ يُعَلّم أصحابه الصبر على هذا الابتلاء . ولكن سعد بن أبى وقاص ذلك الشاب المؤمن القوى الجرىء الذى صناعته برى السهام والنبال كيف يسكت ؟ وقد وصل الأمر إلى الاقتتال بين المسلمين من أصحابه وهؤلاء الكفار الظالمين الطغاة ، فكان من سعد ما كان !

فكان سعد بن أبى وقّاص بطلاً غير هيّاب ، يملأه الإيمان قوة ، والشباب حماسة وفُتُوةً ، وقد خاض مع رسول الله ﷺ كل الغزوات . فقد شهد بدراً أول معركة بين المسلمين والكفار وأبدى فيها من الشجاعة ما أبدى ، ومن دقة التنظيم ، وحسن التفكير والتخطيط ، ما كان رسول الله ﷺ عنه راض ، وبه سعيد .

ولم يستمر الزمن طويلاً ، وأرادت قريش الثأر من المسلمين لما ألحقوه بها من هزيمة وعار فى موقعة بدر فكانت موقعة أُحد ، وفى جيش الكفار خالد بن الوليد صاحب العبقرية العسكرية النادرة - فلم يكن أسلم بعد - وقد

خُدع المسلمون فى الساعات الأولى للمعركة ، وترك الرماة موقعهم الذى أوصاهم الرسول ﷺ بالبقاء فيه - فى حالتى النصر ، أو غير النصر - ترك الرماة موقعهم ظناً منهم بأن المعركة قد حُسمت لصالح المسلمين ، فانتهز خالد بن الوليد وجيش الكفر ذلك فعاودوا الهجوم على المسلمين ، واحتدم القتال ، وكادت الكارثة تقع ، وأحاط الكفار برسول الله ﷺ ، وفَرَّ بعض المجاهدين من المسلمين ، وارتجفت قلوب آخرين . ولكن نفراً من المؤمنين - ومنهم هذا البطل سعد بن أبى وقاص - أحدقوا حول رسول الله ﷺ ، وأبدوا من البطولة والتضحية والفداء والجراءة ما أثار حفيظة الأعداء ، وأسعد قلوب المؤمنين ، وأولهم قلب رسول الله ﷺ .

وانبرى سعد بن أبى وقَّاص - صانع السهام وبارى النبال - يرمى الكافرين ، ورأى رسول الله ﷺ ما يصنع سعد فقال له عليه الصلاة والسلام : « ارْم يا سعد .. فداك أبى وأمى » ، فما كان من علىّ بن أبى طالب - كما روى ابن سعد فى طبقاته - إلا أن قال : ما جمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لأحد وافتداه بهما إلا لسعد بن أبى وقّاص .

وفيما رواه الزهرى : « أن سعد بن أبى وقاص رمى يوم أحد ألف سهم » ، وفيما قاله سعد بن أبى وقاص : « إنى لأول من رمى بسهم فى سبيل الله ، والله إن كنا لنغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط » .

وهذا هو سعد بن أبى وقاص - كما ترى - أول من رمى بسهم فى الإسلام . وكأن التضحيات والفداء أمل يتنافس فيه هؤلاء المسلمون على السبق ، وسعد كما تراه أول من أراق فى الإسلام دماً ، كما إنه أول من رمى بسهم . فنال هذا الوسام النبوى الشريف ، قال رسول الله ﷺ : « ارْم يا سعد .. فداك أبى وأمى »

أى شرف هذا الشرف ؟! وما أروع هذا النوط النبوى ! وإن سعداً بذلك لجدير .

* * *

ويستمر جهاد المسلمين ونضالهم من أجل الإسلام ، ويزيد عطاء سعد للإسلام ، ويتحمل التبعات سعيداً راضياً ، صابراً محتسباً ، ويتنافس وسائر صحابة رسول الله ﷺ فى ميدان الجهاد والتضحيات والفداء ، كلهم يبتغى مرضاة الله ورسوله ، وهذا هو سعد بن أبى وقّاص يُعطى الإسلام ما وسعه العطاء ، ورسول الله ﷺ يشهد سعداً وعطاءه فى السلم والحرب ، عطاء مادى جزيل ، وعطاء معنوى عظيم ، يُعْجَبْ به النبى ﷺ أيما إعجاب فيقول عليه الصلاة والسلام عن سعد بن أبى وقاص : « هذا خالى ، فليرنى امرؤ خاله » !!

نعم .. إنه من بنى زُهرة ، قوم آمنة بنت وهب أم النبى ﷺ ، فهو من أخواله ، وأى خال هذا البطل الجرىء المقدام الشجاع الذى افتخر به الرسول ﷺ ودعا له - فيما رواه سعد بن حازم - قال عليه الصلاة والسلام : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك » ، وفى رواية أخرى : بأنه ﷺ قال فى يوم أحد : « اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته » .

فالنبى ﷺ أحب سعداً فدعا له ، وأحب سعد بن أبى وقاص النبى ﷺ حباً ملأ كيانه كله ، وبعد وفاة رسول الله ﷺ قال سعد بن أبى وقاص : « ما بكيت فى الدهر إلا ثلاثة أيام .. يوم توفى رسول الله ﷺ ... » .

نعم .. بكى سعد ، كما بكى المسلمون كلهم حيث فارقهم القائد الرسول والمعلم النبى ﷺ . ولكنهم يعلمون بأن الله غالب على أمره .

وها هو ذا أبو بكر الصدِّيق ، يتولى الأمر خليفة لرسول الله ﷺ ، يقود الأمة الإسلامية ، ويستمر عطاء سعد بن أبى وقّاص للإسلام فيشارك فى حروب المرتدين ، ويُبلى فيها بلاءً حسناً ، وبعد أن هدأت حروب الردة ، وأخمدت أنفاس المرتدين . فكر أبو بكر الصدِّيق فى تأمين حدود الدولة الإسلامية مع الفرس والروم ، وكان سعد بن أبى وقاص فى هذا الوقت موفداً من قِبَل الخليفة أبى بكر الصدِّيق إلى « هوازن » يجمع العشور والزكاة . ثم يمرض أبو بكر

مرضه الأخير ، ويعين عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين ، ولا يجد بداً من الحرب مع الفرس متماً ما شرع فيه أبو بكر الصدِّيق ، فاستدعى سعداً من « هوازن » لأن سعداً كان يعرف علم « تكنيك » الحَرب الحديثة فكان يدرس الموقف العام للحرب ، ويربط بينها وبين ظروف المجتمع الذى يحاربه ومجتمعه وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وكان سعد يحرص على أن يكون لجيشه ميزة المبادأة حتى يشل قوات العدو ويربك جنوده ، وهذه المبادرة بالمفاجأة كانت تقتضى من سعد كتمان أمر الهجوم والتستر على أسرار الحرب . كما تستلزم أيضاً أن يعرف كل ما يستطيع عن العدو فكان يحيطه بالعيون ، ويرصد تحركاته ، وعند الهجوم يضرب بشدة وعنف حتى يشل العدو . كما كان يعمد إلى قائد العدو ليأخذه على غِرَّة ، فإذا أُخذ انفرط عقد عدوه . قائد محنك ، خبير مجرب .

وقد تدرب سعد على ذلك على يد رسول الله ﷺ ، فكان عيناً للمسلمين فى معركة أحد فقد كلَّفه الرسول ﷺ بعد المعركة بأن يستطلع أخبار الكفار والمشركين فأحسن رصد تحركاتهم ومتابعة سيرهم وقدَّمها للرسول ﷺ .

استدعى الفاروق عمر بن الخطاب سعداً من هوازن ، لأنه يعلم منزلته فى الحرب ، ودقته فى قيادتها ، وقد ابتكر الفُرس محاربة المسلمين بالفيلة ، وليس للمسلمين فى ذلك خبرة ولا تجربة ، وكان ما لحق بالمسلمين فى موقعة الجسر فتألم الفاروق عمر وفَكَّرَ فى أن يقود المعركة بنفسه ، ولكنه والمسلمين وجدوا سعداً رجل الكفاءة والكفاية .

وتقلَّد سعد بن أبى وقَّاص قيادة جيش المسلمين فى حرب القادسية ، وارتبط اسم القادسية - ذلك الموقع الذى تحيط به المياه من على يساره ويمينه ، ويجرى منها الماء فى بحر يتجه إلى الحيرة - باسم سعد بن أبى وقَّاص ، كما ارتبط اسم سعد بالقادسية أيضاً .

سار سعد على رأس الجيش ، وعلى مشارف المدينة بمنطقة « الأعوص »

خطب أمير المؤمنين عمر الفاروق فى الجيش قال : « إن للعدل أمارات وتباشير ، فأما الأمارات فالحياء والسخاء ، وأما التباشير فالرحمة . وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسَّر لكل باب مفتاحاً ، فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَلَهُ حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع فى ذلك أحداً ... » .

ومضى الجيش ، وهو يجمع عدداً هائلاً من المحاربين الذين عبأ سعد نفوسهم ، وأثار فيهم حَمِيَّة الإسلام ، ونخوة العروبة وإبائها ، وعسكر سعد وقتاً فى منطقة « شراف » وهو ينتظر قدوم المُثَنىٌ بن حارثة الذى قاد الجيش بعد مقتل « أبى عبيد » فى وقعة الجسر . ولكن المنية عاجلت المُثَنىٌ أيضاً مما أصحابه من جراح فى هذه الموقعة ، فاشتد عليه الوجع ، فأسلم الروح لخالقها .

وقد ترك المثنى بن حارثة وثيقة أرسلها إلى سعد بن أبى وقَّاص يُوصيه فيها بالحيطة والحذر ، ويصف له طبيعة أرض المعركة والأعداء .

وكان الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب يُتابع أخبار المعركة ويُرسل إلى سعد بما يراه ، وسعد يستفيد من نصائح أمير المؤمنين ويرسل له كل شىء عن الجيش بدقة حتى يقف عمر الفاروق على أمر الجيش كأنه يراه ويشاهده .

عكف سعد بن أبى وقَّاص على وثيقة المثنى بن حارثة ، ووصايا عمر الفاروق يدرسهما بدقة وأناة وروية فلم يتعجل بمداهمة الفُرس ، ورابط الجنود على حدودهم ، وشرع يستطلع أحوالهم ، ثم أرسل إليهم رُسله يدعوهم إلى الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب والقتال .

واستقبل « يزدجرد » ملك الفرس رُسل سعد باحتقار وازدراء وقال لهم : « لولا أن الرُسل لا تُقتل لقتلتكم .. لا شىء لكم عندى ... » ، ثم طلب « يزدجرد » حملاً من تراب وحمَّله لأشرف رسل سعد بن أبى وقَّاص وأخرجه من باب المدائن . وقال لهم : « ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل لكم « رستم » حتى يُجهز عليه وعليكم فى خندق القادسية » .

وقد حمل عاصم بن وقر التراب على عنقه حتى دخل به إلى سعد وأخبره الخبر .

واستمر سعد بن أبى وقّاص صابراً محتملاً ، وتمادى الفُرس فى تجاهل سعد أكثر من مائة يوم لعله يترك ذلك الموقع الحصين يائساً .

واستمر ذلك وقتاً حتى حانت لحظة اللقاء والمعركة ، فخطب سعد فى الجنود وهو مريض قائلاً : « أيها الناس .. إن الله هو الحق لا شريك له فى الملك ، وليس لقوله خلف . قال جل ثناؤه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١) . إن هذا ميراثكم ، وموعود ربكم ... وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة ، وعز من وراءكم ، فإن تزهدوا فى الدنيا ، وترغبوا فى الآخرة يجمع الله لكم الدنيا والآخرة . ولا يُقَرِّب ذلك أحداً إلى أجله . وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم » وقد عبأ سعد الجنود تعبئة معنوية هائلة . والتقى مع الفُرس ، ولقنَّهم درساً لا يُنسى ، وَفَرَّ قائدهم « رستم » هارباً وألقى بنفسه فى النهر فتبعه أحد جنود العرب وقتله شر قتلة .

وكان الخليفة عمر الفاروق يُتابع أخبار النصر سعيداً شاكراً لله فضله ، ثم يُذيع هذه الأخبار على المسلمين ليفرحوا بذلك النصر . بينما أصاب الفُرس الوَهَن والضعف والانكسار ، ولم يمض وقت طويل حتى دخل سعد بن أبى وقاص بجيشه إلى المدائن حتى بلغ إيوان كسرى ذا الصيت والسمعة ، وقرأ سعد قول الحق تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ (٢) .

تلا سعد بن أبى وقّاص قول الله هذا من سورة الدخان . وصلّى فى هذا القصر العظيم . وقد نوى الإقامة فى المدائن هذه .

ثم استمر سعد بن أبى وقّاص يُعطى الإسلام فى عهد أمير المؤمنين عمر

(١) الأنبياء : ١٠٥ (٢) الدخان : ٢٥ - ٢٨

ابن الخطاب فى سخاء كما أعطاه فى أيام رسول الله ﷺ وأبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه . إنه عطاء المؤمن المجاهد .

ثم أصدر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمره بأن يتولى سعد بن أبى وقَّاص « العراق » ، وبنى مدينة الكوفة وظل بها حتى اشتكاه بعض أفراد الرعية واتهموه بأنه لا يُحسن الصلاة ، فأصر سعد على ألا يذهبَ إليهم ثانية .

وبقى سعد بالمدينة يُشارك فى أمورها حتى قُتِلَ الخليفة عثمان فاعتزل الحياة السياسية حتى توفى بعد تجاوزه الثمانين عاماً من عمره ، وكُفِّنَ فى الثوب الذى خاض به معركة بدر وكان قد احتفظ به فى خزانة خاصة وقد طلبه لحظة أن اشتد عليه المرض ثم دُفِنَ فى البقيع .

رحم الله سعد بن أبى وقَّاص ، ذلك البطل العربى المسلم ، وآخر من مات من المهاجرين . إنه قدوة طيبة للشباب المسلم كيف يسير مع الحق والعدل ؟ ويقف مع الله ومبادىء الدين حتى ولو أغضب ذلك أحد الوالدين ؟ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق تعالى . وفى سعد المثل والأسوة للشجاعة والجرأة والفتوة العربية الإسلامية فى قوة خيِّرة بنَّاءة . كيف يتعلم من القائد والمعلم الرائد ؟ وكيف يخطط ويتدبر أموره ؟ وكيف يُطيع القائد ويؤدى دوره فى كل موقع أداء العربى الفطن ؟ .. والمسلم القوى الذكى يعطى الإسلام ما استطاع إلى العطاء سبيلاً . يتحمل التبعات - مهما كانت - فيرى ذلك واجبه فكيف يقصر فيه ؟ وهو المؤمن صادق الإيمان .

وقد اعطاه الإسلام ما أعطى ، أنزل الله فيه قرآناً ، وافتخر به رسول الله ﷺ فهو من أخواله ، ودعا له وبشَّره بالجنة منزلة عالية ومكانة سامية .. إنه عطاء ربك يهبه من يشاء من عباده .

* * *

التاسع : سعيد بن زيد

« وسعيد بن زيد فى الجنة ، ورفيقه موسى بن عمران »
(من حديث شريف)

● سعيد بن زيد فى الجاهلية :

قال ورقة بن نوفل يرثى زيد بن عمرو :

وإدْرَاكُكَ الدِّينَ الَّذِى قَدَ طَلَبْتَهُ　　　وَلَم تَكُ عَنْ تَوْحِيدِ رَبِّكَ سَاهِياً

التدين فطرة فى الإنسان يبحث عن إله يعبده ، ويرتضيه رباً ، وقد يتخذ ذلك فى قوى الطبيعة ، أو مظاهرها ، قد يرى قوم هذا الإله فى الشمس ، وآخرون فى القمر ، وغيرهم من حيوان كالبقر . وعبد العرب فى الجاهلية الأوثان والأصنام من الحجر ودانوا لها بالولاء ، وطافوا حولها فى الكعبة صباح مساء ، وعادوا مَنْ سبَّهَا ، أو مسها بسوء أشد العداء .

وقد صوَّر القرآن الكريم فى سورة الأنعام موقف إبراهيم عليه السلام وحيرته فى هذا الأمر ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً ، قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِى لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .. ﴾ [١]

ولم يكن إبراهيم عليه السلام وحده الذى لفته تلك الحيرة المحيرة فيما يعبد ، ولعل كل واحد من هؤلاء الذين لم يعتقدوا راضين بتقليد الآباء والأجداد فى عبادة اللاَّت ومَنَاة والعُزَّى وغير ذلك من هذه الأحجار الصماء البكماء شمله ما

---

(١) الأنعام : ٧٦ - ٧٩

ألمّ بإبراهيم ، وحيّره ما حَيّرَ إبراهيم . لعل كل واحد من هؤلاء الأحناف الحنفاء الذين عاشوا زمن الجاهلية الجهلاء اجتنب الرجس من الأوثان ، ورأى فى ذلك نوعاً من الشرك ، وحماقة فى الإنسان كيف يعبد ما تصنع يداه ؟ وكيف يكون الرب عاجزاً عن دفع الضُّر عن نفسه ؟

ولعل زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى ... القرشى العدوى - والد « سعيد » - واحد من هؤلاء الأحناف الحنفاء . فقد ذكرت كتب السيرة بأن زيد ابن عمرو هذا كان ينشد :

وأسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ — له الأرض تحمل صخراً ثقيلاً

دحاها فلما استوت شدها — سواءً وأرسى عليها الجبالا

وليس هذا فحسب ، بل إن الشيخ محمودُ الطنطاوى فى كتابه « من فضائل العشرة المبشرين بالجنة » يثبت لزيد بن عمرو بعض الشعر وينسبه إليه على أنه من قريضه ، ومنه قوله :

أرباً واحداً أم ألف رب — أدين إذا تقسمت الأمور

عزلتُ اللأت والعُزّى جميعاً — كذلك يفعل الجَلد الصبور

فلا عُزّى أدين ولا ابنتيها — ولا صنمى بنى عمرو أزور

ولكن أعبد الرحمن ربى — ليغفر ذنبى الرب الغفور

هذا شعر كان ينشده « زيد بن عمرو » راضياً عنه ، أو كان يقرضه معتقداً به ، مقتنعاً بما فيه ، يعطيك دلالة قاطعة على أنه كان واحداً من هؤلاء الحنفاء الذين أعرضوا بقلوبهم ، ونأوا بعقولهم عن عبادة هذه الأصنام فى زمن الجاهلية العربية . كما إن هذا الإنشاد أو ذلك القريض ينبىء إنباءً صادقاً - فيما أرى - عن فطرته النقية ، وطبيعته السوية ، وعقليته الناضجة القويمة القوية ، ونحيزته المفكرة فى دقة واستقامة ، برغم ظروف البيئة الجاهلية شديدة القسوة ،

ووعرة الحياة ، والطقس ، والظروف ، منحرفة العبادة ، باطلة الاعتقاد . ولكن : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [1] .

ويكاد الإجماع يتم بين القدماء والمحدثين أيضاً من العلماء بأن أثر الآباء لا ينكره أحد فى الأبناء . وهذا زيد بن عمرو بن نفيل - والد ذلك البطل المُبشَّر بالجنة « سعيد بن زيد » - هذا زيد كما تراه من شعره ، وخلال قريضه عدلاً واستقامة ونقاء فكر وصحة اعتقاد . ألا يؤثر ذلك كله فى ابنه « سعيد » ؟

بلى قد أثر - فيما أرى - فى اختيار اسمه « سعيداً » فى ذلك المجتمع البدوى الصلب الصلف الشديد القاسى المظلم ، فماأقل هذه الأسماء فى البيئة الجاهلية !

وكيف لا يتأثر ابن وقد نشأ فى بيت عبادة نقية طاهرة ، ومع أب من الأحناف الحنفاء موحداً لله ، كافراً بتعدد هذه الآلهة الجوفاء .

ولا أخال زيد بن عمرو بن نفيل وأمثاله على غير علاقة بورقة بن نوفل وأضرابه من الباحثين القارئين فى الديانات ، فليس هناك ما يمنع أن يكون زيد ابن عمرو قد عرف شيئاً مما يقوله الناموس عند النصارى واليهود عن الدين الجديد ، والنبى الرسول الخاتم ، بل إن واقعه وحياته وأمثاله من الحنفاء يؤيد ذلك ويعضده .

ولا أتخيل أباً يعرف شيئاً عن ذلك الدين القيم ويحجبه عن ابنه ، قد يحجبه عن غيره ، ولا سيما إذا كانت ملاحظته المستمرة لهذا الابن ، ومتابعته الدائمة له ، ورأيه فيه تنبئه بنجابة هذا الابن ، واستقامته ، وفطنته ، وصفاء ذهنه ، وصلاحه كما رأها زيد بن عمرو بن نفيل فى ابنه سعيد ، وكما ألفاها الباحثون والكُتَّاب فى سيرته ، وقد جسدتها أعماله وأقواله عبر حياته كلها فى جاهليته وإسلامه .

فلا بد أن الطريق كان ممهداً بين سعيد بن زيد وذلك الدين الجديد ، وليس

---

(١) الفتح : ٢٥

هناك - فيما أرى - أقل شك بأن سعيداً كان يتطلع إلى هذا اليوم مشتاقاً إليه ، وفى لهفة عليه ، ولا سيما إذا ذهب إلى الكعبة ورأى هذه الأصنام وتلك الأوثان التى لا يستريح لها عقله ولا ترضاها فطرته ، ولا تتفق وإعداده وتربيته ، ولا يطمئن إليها ضميره .

وعندما علم بنبأ هذا الدين الجديد ، الذى يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ ويدعو فيه إلى عبادة الله الواحد الأحد ، الخالق البارىء المصور ، الفرد الصمد، الذى لا شريك له فى الملك ، ولا نظير ولا ولد .. يومئذ أسرع سعيد بن زيد إلى النبى محمد ﷺ . واستمع إليه ، ثم أعلن إسلامه ، واستجاب لكوامن عقله ووجدانه ، ولم يمض وقت طويل ، إلا وقد شرح الله صدر زوجته فاطمة بنت الخطّاب ، أخت أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطّاب إلى الإسلام . وقد أسلم الزوجان الكريمان ، ونعما بنعمة الإسلام ، وذاقا حلاوة الإيمان فيما كانا يتعلماه من الصحابى الجليل خبَّاب بن الأرَتْ . وقد شاءت إرادة الله أن يكون خيط النور الذى سار عمر بن الخطّاب على ضوئه أن ينبعث من بيت سعيد بن زيد زوج أُخته فاطمة بنت الخطاب ، وسار عمر مع هَدى هذا النور حتى دخل فى دين الله وأعلن إسلامه على يد رسول الله ﷺ .

وقدَّم بيت سعيد بن زيد للإسلام ما قدَّم من الخير ، والطيبات ، والصالحات . ومنها أن عمر بن الخطاب انطلق إلى الإسلام من هذا البيت الكريم .

* * *

سعيد بن زيد فى الإسلام

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾
(الأحزاب : ٢٣)

دخل ذلك الفتى أسمر اللون ، طويل القامة ، كثيف الشعر ، قوى البنية ، حديدى الإرادة ، قويم الخُلق ، حاد الذكاء ، نقى الفطرة ، خصب المنبت ، عريق النسب سعيد بن زيد . دخل الإسلام بعقله وقلبه . ونال كغيره من المسلمين الأوائل ما نال من تبعات ، ومن ظلم كفار قريش لهم ، وبطشها بهم ، وكان عمر ابن الخطّاب ابن عم سعيد وأخو زوجته فاطمة ، أول من وثب على سعيد وضربه ضرباً عنيفاً ، فجاءت أختُه فاطمة ، لتدفعه عن زوجها ، فلطمها عمر لطمة شج وجهها وأسال الدم عليه . فثارت فاطمة ثورة خطّابية عارمة وقالت :إنك مشرك ، والشرك نجس ، والقرآن كتاب الله لا يمسه إلا المطهرون . فإذا أردت الصحيفة ، فاذهب واغتسل ، فلما رأى عمر الدم فى وجه أخته رَقّ لها ولان . ثم ذهب فتطهر وقرأ قول الله تعالى : ﴿ طهَ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى .. ﴾ (١) .

وكأن ترياق الهداية بلغ قلبه ، ومَسّ وجدانه ، فأنار عقله فقال : « دلونى على المكان الذى فيه محمد بن عبد الله » ؟ أين ؟ فكان إسلام عمر . فهانت اللطمة القاسية بجوار العطاء العظيم الكبير الذى انطلق من بيت ـعد بن زيد .

، وأعلن إسلامه ، وبرغم ذلك لم يخفف من ظلم قريش للمسلمين ـ:ا.ها لهم ، وما زال بطشهم يتتابع فشرع سعيد بن زيد

وزوجته فاطمة فى الهجرة إلى يثرب حيث ذلك المجتمع الإسلامى الجديد . وهاجرا متحملين ما شاء الله لهما أن يتحملا من مشقات الطريق ، وألم ترك الأهل ، والبُعد عن الوطن ومسقط الرأس ، وعناء الاغتراب ، ولكن ذلك كله يسير مهما بلغ ، وهَيِّنٌ مهما قسا ، فإنه من أجل الدين والعقيدة .

وفى المدينة سعد سعيد بن زيد كغيره من المهاجرين بأخوة الأنصار لهم ، ومكارمهم معهم ، وترابطهم وتضامنهم فى إخوة دونها إخوة النسب ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) . إنه مجتمع عظيم بناه إنسان رسول كريم .

ثم انطلق سعيد بن زيد يؤدى دوره فى هذا المجتمع فعمل فى دأب ، فالإسلام دين لا يعرف الكسل أو الخمول ، ولا يقبل غير العمل الجيد ، والأداء المتقن ، والله يقول : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ، ويقول الرسول ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » ، ولم يُقَدِّر الإسلام عملاً كما قدَّر الجهاد فى سبيل الله ، وهذا ما كان سعيد بن زيد يهوى ويحب ويريد دائماً أن يكون .

وقد اشترك مع رسول الله ﷺ فى جميع المشاهد وكل الغزوات ما عدا بدر التى كان قبلها بقليل مكلفاً من قِبَل الرسول عليه الصلاة والسلام باستطلاع أمر عير قريش ورصد تحركاتها ، فأقام سعيد بن زيد فى « الحوراء » يؤدى مهمته التى وُكِّلت إليه حتى كان اللقاء الأول بين جيش الإيمان وجيش الكفار فى موقعة بدر الكبرى ، وهُزمت قريش فيها هزيمة ساحقة على يد رسول الله ﷺ وأصحابه بفضل الله تعالى . ولكن النبى عليه الصلاة والسلام علم بنية ذلك المجاهد الصابر سعيد بن زيد فأعلمه بأن له أجر المجاهد وسهم المقاتل ، وما أجمل الجزاء !! ، وأكرم به من عطاء !! قال الله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ

---

(١) الحجرات : ١٠ . (٢) التوبة : ١٠٥ .

عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وفى غزوة أحد كان للبطل سعيد بن زيد جهاد مشكور ، فقد صمد يناضل ويقاتل وكاد المسلمون يُهزمون ، والتف مع قليل من الأبطال حول رسول الله ﷺ ، وأبدى من البطولة والشجاعة ما أبدى ، وقد رأى ذلك منه رسول الله ﷺ فكان راضياً عنه وبه سعيد .

ولم يكن جهاده فى غزوة الخندق ، وخيبر ، وفتح مكة ، ويوم حنين إلا صفحات وضّاءة مُشرقة فى تاريخ الإسلام كله لا سيرة البطل سعيد بن زيد وحده .

وكيف لا يكون سعيد بن زيد بطلاً شجاعاً ، ومقاتلاً فذاً وجندياً مثالياً فى جميع المشاهد والغزوات مع رسول الله ﷺ والجهاد هوايته .

ولما تُوفى رسول الله ﷺ ، حزن سعيد لذلك النبأ كما حزن المسلمون كلهم ، ولكن ماذا يفعل فالله غالب على أمره . وهو المؤمن الصادق الإيمان .

ثم تولى أبو بكر الصدِّيق الخلافة ، وكانت حروب الرِّدة أكبر المشكلات التى جابهت الصدِّيق أبو بكر ، وأقسى التبعات التى تحمَّلها رضى الله عنه فى قوة بأس ، ورباطة جأش ، وشدة وعنف غير معهودين فى الصدِّيق أبو بكر .

ولم يكن دور سعيد بن زيد فى جهاد هؤلاء المرتدين بأقل مما أداه فى الغزوات مع رسول الله ﷺ . فكان سعيد بن زيد رضى الله عنه يحب الجهاد ، ويهواه عن أى شىء آخر ، ويرى فيه مقياساً جيداً يُقاس به الإيمان ، فكان حيث وضعه أبو بكر الصدِّيق خليفة رسول الله ﷺ .

وكان سعيد إذا كُلِّف بعمل آخر غير الجهاد ، لم يجد نفسه فيه كما يجدها فى الجهاد والنضال ، ومما يدل على ذلك قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم . من

(١) التوبة : ١٢٠ - ١٢١

سعيد بن زيد . إلى أبى عبيدة بن الجرَّاح . سلام الله عليك . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد .. فإنى ما كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد على نفسى وعلى ما يدنينى من مرضاة ربى . فإذا أتاك كتابى هذا . فابعث إلى عملك من هو أرغب إليه منى . فإنى قادم عليك وشيكاً إن شاء الله تعالى . والسلام عليك » .

واضح أمر الرسالة ومضمونها حيث أوكل إلى البطل سعيد بن زيد عملاً غير الجهاد فتنحى عنه لمن يريده ، وطلب هو ما يريد . ولا يريد شيئاً غير ما يدُنيه ويُقَرِّبه من مرضاة الله ، وليس مثل الجهاد يحقق ذلك كما يراه سعيد بن زيد البطل . ويدل عليه أسلوبه فى رسالته أصدق دلالة ، فى أوجز عبارة وأفصح بيان يكتبه مجاهد .

وقد ولى الخلافة بعد أبى بكر الصديق أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ، وكان فى التنظيم والإدارة على درجة عالية تضعه بين المؤسسين العظام ، ورجال الدول الذين هم من طراز فريد عبر التاريخ كله .

فكان دائماً يتابع الولاة ، ويسأل عن العمال ، ويحاسب أى واحد - مهما كان - عن التقصير أو الإهمال ، فكتب رضي الله عنه إلى أبى عبيدة بن الجراح، يسأل عن كثير من المجاهدين ورجال الدولة فى سواد العراق الذى فُتِحَ فى عهده ، ومن بين هؤلاء الذين سأل عنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب : معاذ بن جبل ، وسعيد بن زيد ، فكان رد أبى عبيدة بن الجراح عليه : « ...وأما عن سعيد ومعاذ ، فكما عهدت ، إلا أن السواد زادهما فى الدنيا زهداً ، وفى الآخرة رغبة »

وها هو ذا سعيد بن زيد ، فى عهد الخليفة عمر بن الخطَّاب ، لا يزيده المال إلا زهداً ، ويدفعه الثراء والرفاهية إلى الجهاد دفعاً . فاستمر يجاهد فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب كما كان فى عهد الصدِّيق أبو بكر رضى الله عنه .
وقد كانت فى عهده حروب الروم والفُرس ، وبهما ارتبط اســـم البطل سعيدا

ابن زيد بقيادة سعد بن أبى وقّاص ، فكانت القادسية ، والمدائن واليرموك وكلها من المعارك الإسلامية الكبرى التى أبلى فيها سعيد بن زيد بلاءً حسناً .

وفى الأيام الأخيرة من سنة خمسن هجرية - وفى أصح الروايات كان يوم جمعة - أسلم البطل المجاهد سعيد بن زيد الروح إلى بارئها بالعقيق ثم نقل إلى المدينة ودُفِنَ بها ، وأشرف على شئونه هذه عبد اللّه بن عمر ، وسعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنهم جميعاً .

وقد ترك سعيد بن زيد للشباب المسلم القدوة الطيبة فى الجهاد والنضال من أجل إعلاء كلمة الحق ، وفى سبيل اللّه تعالي .

كما قدَّم درساً عملياً ، بأن كل إنسان ميسر لما خُلِقَ له ، فقد زهد سعيد بن زيد فى المناصب ، وكم أناس عليها يتقاتلون !! كما زهد فى المال والثراء ، وسواد العراق ، وكم نرى فى الحياة أناساً يكاد يُصيبهم السعار من أجل المال !!

وكان سعيد بن زيد صاحب فطرة نقية صافية ، وفطنة ممتدة متسعة واعية ، وصبر وجَلد ، وهدوء ورقة واتزان ، وقلب كبير ، وصدر رحب فسيح ، فكانت سيرته صفحة من صفحات الإسلام المشرقة الوضّاءة .

وكان سعيد بن زيد ابن رجل من حنفاء الجاهلية ، فتربى تربية صالحة وكأنه يدعو المعنيين بتربية النشء المسلم والآباء إلى القدوة الرائدة ، والتربية الرشيدة الواعية ..

رحم اللّه ذلك البطل ، ونعَّمه فى جنته العالية مع رفيقه موسى بن عمران عليه السلام ،

* * *

العاشر : أبو عبيدة بن الجراح

قال رسول الله ﷺ : « نِعْمَ الرجل أبو عبيدة بن الجرَّاح »
(حديث شريف)

لفَّ الظلام مكة ، وسادها الهدوء ، وخيَّم عليها وجوم المناطق الجبلية ، ثم سار رجل طويل القامة ، فارع الطول ، نحيفاً ، مفتول العضلات ، تبدو على وجهه الصلابة ، والأنفة ، خفيف اللحية ؛ سار عامر بن عبد الله بن الجرَّاح بن هلال بن ضبة الفهرى - وكُنيته « أبو عبيدة » - فى جُنح الظلام إلى دار أبو بكر بن أبى قحافة .

ثم قرع أبو عبيدة الباب ، فدخل الدار ، ورحَّب به أبو بكر فى حرارة وسرور ، واستمر بينهما الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل ، وهما يتحاوران حول هذا الدين الجديد ، ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ الذى يُلقِّبَه أهل مكة بالأمين . وأبو عبيدة يعرف محمداً ﷺ معرفة جيدة ، وتقابل معه عدة مرات ، ولم يسمع عنه غير كل خير ومن جميع الناس .

وقد خرج أبو عبيدة من دار أبى بكر ، ووصل داره فى ساعة متأخرة من الليل ، ولم ينم أبو عبيدة ، فهو يفكر ، ومع الأفكار ينصرف النوم ، وهو فى أرق وقلق ، وظل على هذه الحال حتى طلعت شمس النهار ، وأخذه النوم قبيل الضُّحى بقليل ، ولم ينم طويلاً ، فقد استيقظ وبدا على وجهه وجوم شديد ، كما ظهـــر فى أعماله الاضطراب ، وكلما رغب فى أن يُشغل نفسه بالعمل داهمته الوساوس ، وأخذته الهواجس إلى عالم التفكير فيما هو مُقبل عليه ليلاً من أمر عظيم الشأن ، جليل الخطر .. وقد لا حظ أبوه عليه الحيرة والاضطـراب ، كما لاحظ عليه القلق ، ثم سأله ما السبب ؟ فلم يعطه أبو عبيدة جواباً يُرضيه ، وشعر الأب بأن الابن يراوغه ، فقال له جواباً يسترضيه ، ويصرفه عما هو فيه ،

فشعر بما يريد ولده ، فنظر إلى الأرض ، وحملق قليلاً فى وجه ابنه . ثم انصرف الأب إلى حال سبيله ، وراح أبو عبيدة مستغرقاً فى هواجسه ، يُصارع أفكاره ، وكأن الوقت لا يسير ، فكانت الساعات تمضى بطيئة ، ثقيلة ، مرهقة . ولما غربت الشمس بدا الإرهاق واضحاً على أبى عبيدة ، وعندما غشى الظلام ربوع مكة ، تسلل أبو عبيدة إلى دار أبى بكر بن أبى قحافة . ثم انصرفا إلى « محمد » ﷺ معاً . ووجد أبو عبيدة « محمداً » ﷺ فى سمت على غير ما يعرفه ويعهده ، وقد رأى محمداً ﷺ مرات عديدة وفى مواقف متكررة وما رآه مثل اليوم وكأن نوراً يشع من وجهه وبريقاً يلفه ، موقف يعيشه أبو عبيدة بين الحيرة المحيرة والدهشة المذهلة ، والإعجاب الأخّاذ ، فكثيراً ما رأى محمداً ﷺ ولكن على غير ما يراه الآن ، ولم يدر كيف نطق بصوت عالٍ مسموع ؟! قائلاً : أشهد أنك رسول الله ، وأن لا إله إلا الله .. ثم عانق النبىّ ﷺ وأجهش فى البكاء ، ثم ضحك ، ثم بكى . وأخذ يُصغى فى انتباه إلى رسول الله ﷺ ، وكأنه يريد أن يشرب كلامه الجميل الحلو شراباً ، وبدأ يشعر بالراحة والهدوء ، مع الاطمئنان والأمان ، حتى توقف الرسول ﷺ عن الكلام بينما يرجو أبو عبيدة المزيد ، ثم عاد إلى داره ، هادىء الأعصاب ، قرير العين ، ثابت القلب ، راسخ اليقين ، بأن هذا الدين الذى اعتنق هو الدين الحق ، وأن الإله الواحد الأحد الذى عاهد محمداً رسول الله ﷺ على عبادته هو المعبود الحق ولا إله غيره .

ثم بدأ أبو عبيدة يتحوّل خُلقاً جديداً وكأنه الآن صفحة بيضاء نقية طاهرة ناصعة البياض ، مهيأة أن تُكتب فيها أمجاد وآيات تُخَوّل صاحبها المآل الكريم ، وتُنزله منازل الشهداء والصديقين .

ولم يسلم أبو عبيدة - كغيره من المسلمين الأوائل - من اضطهاد كفار مكة ، وكان أبوه وأهله أشد هؤلاء القوم أذىً له ومقاومة لما يعتقد ، فقد عذّبوه ، وضربوه ، وقاطعوه ، وما زاده ذلك إلا تمسكاً بالإسلام ، وحباً لله ولرسوله ، حتى إنه آثر البقاء بمكة مع الرسول ﷺ ولم يهاجر أول هجرة إلى الحبشة ، وناله

من الأذى ما ناله فصبر راضياً ، ثم استأذن النبى ﷺ فى الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وبقى وقتاً غير طويل ثم قَفَلَ عائداً إلى مكة ، حيث الأهل ، والوطن ، والرسول ، وألم الغربة ، وبعض القلاقل بالحبشة مع النجاشى وآخرين من الخصوم . وتحمَّل أبو عبيدة اضطهاد كفار مكة وبطشهم وظلمهم ، مع المسلمين صابراً محتسباً حتى هاجر إلى المدينة ، واستقر مع أخيه سعد بن معاذ وهو من سادة الأنصار وكرامهم وأهل الرأى فيهم .

وفى المدينة حيث المجتمع الجديد الذى بناه الرسول ﷺ فى ضوء هدى الله وتوفيقه ، انطلق أبو عبيدة يُعطى الإسلام العمل والجهاد ، فلم يمض وقت طويل وقد دار القتال بين المسلمين وكفار قريش فى موقعة بدر الكبرى . وكان للبطل أبو عبيدة فى هذه المعركة موقف متميز عن سواه من المجاهدين الأبطال . هل تميز هذا الموقف فى الشجاعة والجرأة والإقدام ؟ فكثير من أبطال المسلمين أبدى شجاعة فائقة ، وكثير منهم أظهر جُرأة نادرة .

ولكن ذلك الموقف الذى وقفه أبو عبيدة متميزاً به عن غيره بأنه وقف وجهاً لوجه يقاتل أباه ، والبطل أبو عبيدة يبتعد عنه ويتحاشاه ، والأب يندفع نحوه يريد قتله ، وكأنه عار يريد أن يُزيله عن ظهر الأرض حتى لا يراه . أبو عبيدة يكرر الابتعاد ، وأبوه يُسرف فى الحرص على قتله ، موقف صعب .. ابن يقاتل أباه . الابن مؤمن بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، والأب يكفر بهذا الإله ويؤمن باللات والعُزَّى ومَنَاة . فلما لم يجد الابن بُدّاً لنجاة الأب غير أن يفارق هو الحياة . رأينا الأب يسقط على الأرض قتيلاً مضرجاً بدمائه بضربات الابن المؤمن بالله ورسوله ﷺ . هذا هو الإيمان . وعين الله تعالى مع المؤمنين فى يوم بدر ، ورعايته تؤيدهم بالملائكة وتكتب لهم ذلك النصر الحاسم الخالد . وهل يغيب عن الله شىء مهما دقَّ فيُنزل الله سبحانه وتعالى قرآنا كريماً من عنده فى موقف أبى عبيدة بن الجرَّاح فى سورة المجادلة ، قال الحق تعالى : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ،

أولَئكَ كَتَبَ فى قُلُوبِهمُ الإيمَانَ وأيَّدَهُمْ برُوحٍ منْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى منْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالدينَ فيهَا ، رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أولَئكَ حِزْبُ اللَّه ، ألاَ إنَّ حزْبَ اللَّه هُمُ المُفْلحُونَ ﴾ [1] .

أى منزلة عظيمة هذه ! لذلك البطل المسلم المجاهد فى سبيل الله من خالقه وربه الذى قتل حرصاً على مرضاته : أباه ، فأنزل فيه هذا القرآن الكريم .. إنه نوط شرف عظيم ، ووسام بطولة وفداء يبقى على أبى عبيدة ما بقيت الحياة . وما ينقطع بعدها أثر الجزاء . فإذا كان الموقف متميزاً ، فالجزاء عظيماً .

ولم يمض زمن طويل على موقعة بدر ، وكيف تقبل قريش هزيمة بدر وتنام عيون سادتها عن الثأر طويلاً ، فكانت معركة أحد ، وحقّق المسلمون فى أولها بوادر النصر السريع ، ولكن كَرَّة الكفار - وفيهم خالد بن الوليد - كادت تُلحق بالمسلمين هزيمة ساحقة ، وفَرَّ بعض المسلمين ، والتف أبطالهم وشجعانهم حول النبى ﷺ ، ومن هؤلاء أبى عبيدة بن الجرّاح ، وقد أصيب الرسول ﷺ فى وجهه ، ودخلت فى وجهه الشريف حلقتان من درعه . وكأن وسام الشرف قد رهبته المعارك للبطل أبى عبيدة بن الجراح فكان بجوار الحبيب المصطفى حينئذ فانتزع بأسنانه الحلقتين ، فانكسرت ثنيتاه ، وأصبح من يومها أثرم ، فكان هذا الوسام فى موقعة أحد أيضاً نوطاً جديداً من أنواط الشجاعة والشرف .

واستمرت معارك الكفار مع محمد ﷺ ، وتتابعت المشاهد ، وقد كتب الله تعالى للبطل أبى عبيدة أن يشهدها كلها مع رسول الله ﷺ . وفى كل منها يبدى أبو عبيدة بطولات عظيمة ، ويسطر فى التاريخ صفحات وضاءة مشرقة يراها الرسول ﷺ وهو عنها وعن بطلها راضٍ ، وبه سعيد .

وهذا هو أثر الإسلام ، وفيض الإيمان الحق فى النفوس كيف يجعلها قوة قوية بنّاءة ! ويجمع شملها الشتيت ، ثم يهديه المسير فى طريق مستقيم قويم ، ثم يمنح هذه النفوس الحائرة القلقة المضطربة السكينة والأمن والطمأنينة ، فتعطى العطاء الجميل ثم تنال الجزاء الكريم العظيم .

---

(1) المجادلة : ٢٢

أبو عبيدة بن الجرَّاح شهد المعارك مع رسول الله ﷺ ، فكان بطلاً مغواراً ، ومجاهداً عظيماً مقداماً . وكان أيضاً فقيهاً فى علوم الدين ، يتناولها بذكاء خلاَّق ، ومنطق قويم ، وفكر ممتد عميق .

قد جاء إلى النبى ﷺ وفد من أبناء العرب . قدموا من « نجران » يعلنون إسلامهم ، ويطلبون منه مسلماً يُعَلِّمهم مبادىء الدين ، ويشرح لهم بعض أموره التى تعن لهم فى حياتهم . وفيما يحكيه ابن سعد بأن رسول الله ﷺ قد وضع يده الشريفة علي كتف « أبى عبيدة » وهو يقول : « إننى سأبعث معكم بأمين صادق ، إنه أبو عبيدة – أمين الأمة » .

وهذا وسام شرف آخر من الأوسمة الإسلامية التى نالها أبو عبيدة بن الجراح يُقَلِّده له رسول الله ﷺ . « إنه أمين الأمة » ما أرفع هذا الوسام ! وما أجمله فى عنق أبى عبيدة بن الجرَّاح . وإنه كما ترى وساماً فريداً لم يُقَلِّده رسول الله ﷺ لأحد سواه .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة أميناً ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

ولما غربت شمس النبوة ، وأسلم النبى ﷺ الروح لبارئها تعالى ، حزن أبو عبيدة كما حزن صحابة رسول الله ﷺ ، ولكن الحزن عنده كان حزن المؤمن الصابر قوى الإيمان ، فعندما طلبه الفاروق عمر أن يذهب إلى سقيفة بنى ساعدة حيث قد اجتمع الأنصار ، وهم يناقشون أمر الحكم بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، خَفَّ سريعاً إليه ، وسار مع صاحبيه إلى السقيفة وفى هذا الموقف تجلى جانب آخر من جوانب عظمة أبى عبيدة ، إنه الجانب السياسى الذكى بعيد النظر . فقد هَمَّ أبو بكر الصدِّيق أن يبايعه فهو « أمين الأمة » ، ولكن أبا عبيدة يُدرك منزلة الصدِّيق فى الإسلام ، ومكانته عند المسلمين ، وحكمته وما فيه من لين . إنه أسبقَ الرجال إسلاماً ، وإنه رفيق رسول الله ﷺ فى الغار والهجرة ، وقد كلَّفه الرسول ﷺ بأن يؤم المسلمين فى الصلاة ، وهذا أمر فهو

من الدين ، والصلاة عماد هذا الدين ، فكيف لا يبايعه أبو عبيدة ؟ فمد يده فبايع الصدّيق بالخلافة . وهنا يبدو أبو عبيدة السياسى الفطن ، فى أكثر المواقف شدة وحساسية ، كما يبدو أيضاً إنه يعطى من نبع فيّاض ثرى فها هو ذا يواصل العطاء الجميل فى عهد الصدّيق كما كان يفيض فى عهد رسول الله ﷺ . وعندما عقد أبو بكر الصدّيق العزم على فتح الشام وتأمين حدود الأمة الإسلامية مع الروم كان أبو عبيدة بن الجرّاح قائداً لواحد من هذه الجيوش ، وبمثابة القائد العام للجيوش كلها إذا حاربت مجتمعة .

وفى معركة « اليرموك » يتكشف لنا أكثر من جانب فى شخصية ذلك البطل المجاهد . فلم يعلن للجند وفاة الخليفة الأول الصدّيق ، وكتم هذا الأمر عنهم حتى يتلافى ما قد يكون له من آثار سلبية عليهم .

ولم يعلم خالد بن الوليد بنبأ عزله من قيادة الجيش الإسلامى ، وكيف يعلن له ذلك ؟ وهو يعلم بأن أبا بكر الصدّيق كان يقول : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد » .

كما يعلم أيضاً أنه سيف الله المسلول على الكفار وأعداء الإسلام وله شهرة حربية ، وعبقرية عسكرية كادتا تطبقا على الآفاق . فترك له الأمر يحارب حتى أتم فتح دمشق ، وعند توقيع وثيقة الصلح وقعها أبو عبيدة لأنه هو القائد العام من قِبَل أمير المؤمنين عمر .

ولكن هنا يتبادر إلى الأذهان سؤال ، ولا بد أنه قد عنّ لكل إنسان : وماذا فعل خالد بن الوليد ؟

إن هؤلاء الرجال من معادن صقلها الإيمان وصفّاها ، فكانت نقية ذكية طاهرة خالصة . فلم تشغلهم المناصب والمراكز ، بل كانوا يرونها تكليفاً وأعباء ، لا تشريف وازدهاء ، فقال خالد ما فيه حسم الأمر حسماً قاطعاً ، قال : « أنا لا أقاتل من أجل عمر » .

نعم .. خالد يقاتل من أجل الواجب ، ويقاتل من أجل مرضاة الله فى الجهاد .

نعم .. إنه يجد فيه ذاته حيث عبقريته العسكرية فلا عيب فى ذلك ، ولكنها عبقرية يخدم بها المبادىء الإسلامية ، ويحرص على مرضاة الله بالجهاد .

نعم .. خالد لا يقاتل من أجل عمر . ولكنه يقاتل من أجل حماية الإسلام ، وهو يعلم بأن خالداً هو خالد ، سواء قاتل قائداً عاماً أو جندياً تحت إمرة أبى عبيدة بن الجراح ، فأينما قاتل فهو الجهاد .

وفى عدم إعلان عزل خالد حتى اللحظة المناسبة تظهر خبرة أبى عبيدة فى القيادة العسكرية ، وقد أعلمه بلطف وكياسة وأدب إسلامى رفيع .

وهكذا استمر البطل المجاهد أبو عبيدة بن الجراح يُعطى الإسلام ما استطاع من عطاء فى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطّاب كما كان فى عهدى الرسول ﷺ وأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه . وفى عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، قد ارتبطت حروب الروم فى الشام باسم أبى عبيدة بن الجراح ، كما ارتبط اسمه بأرض الشام .

وأخذ يَقَدّم فى كل معركة يخوضها دليلاً جديداً بأن معين القيادة لن ينضب فى دولة الإسلام ، فكم فيها من قائد بطل ، وعبقرى عسكرى لا يُشق له غُبار . وكم دوّخ أبو عبيدة الروم ، وأذلّهم قتلاً وأسراً كل إذلال ، وكأن المسلمين كلهم خالد فى الميدان .

وكيف لا يفعل ذلك وهو يعلم منزلته ومكانته عند أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فإنه القائل : « لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه بالخلافة » . نعم .. هذه مقالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكانت بلاد الشام تعنى سورية ، وفلسطين ، والأردن ولبنان الآن .

واستمر أبو عبيدة يقاتل فى بلاد الشام حتى دانت للمسلمين بالطاعة والولاء .

وقبل أن يبلغ أبو عبيدة بن الجراح الستين عاماً من عمره ، ظهر فى فلسطين مرض الطاعون - المعروف بطاعون عمواس - وفى هذا العام أصيب أبو عبيدة كما أصيب فى هذا العام - أو فى زمن هذا المرض - كثير من صحابة رسول الله ﷺ وعليهم رضوان الله .

ومما يُقال : بأنه قد مات من المسلمين فى هذا الطاعون أكثر من عشرين ألفاً . ومن هؤلاء الرجال ذلك البطل أبى عبيدة بن الجرّاح .

وإنه صورة مشرقة ، وصفحة برّاقة بالشرف والضياء فى تاريخ قادة المسلمين العظام . كما إنه قدوة طيبة ، وأسوة حسنة يجد فيها المسلم : المجاهد البطل ، والمؤمن الصادق الإيمان ، والفقيه الذكى الفطن . والسياسى الألمعى المهذب المحنك الديبلوماسى البارع ، والقائد الخبير المجرب الشجاع المقدام . قدوة قائدة ، وأسوة رائدة ما أحوج شباب العروبة والإسلام إليها فى هذا الزمان .

فنال الجزاء كما أخبر الصادق الأمين المصطفى المختار ﷺ قال : « ... وأبو عبيدة عامر بن الجراح فى الجنة ، ورفيقه إدريس عليه السلام » .

وبعد أن تجلت أمام القارىء صورة هذا البطل المسلم المجاهد فى سبيل الله ، كما تجلت من قبل صورة أبى بكر الصدِّيق والفاروق عمر بن الخطّاب الذى قال : « لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه بالخلافة » .

هل يقبل عاقل ؟ أو يقر مفكر منصف ؟ أو يتخيل مسلم واحد ؟ ما يزعمه نفر من هؤلاء المستشرقين الذين دأبوا على دسّ سمومهم بين طيات بعض البريق فيما يكتبون وبخاصة عن الإسلام وأبطاله ، أو التراث الحضارى العربى الإسلامى . هل يقبل واحد منصف زعمهم بأن مؤامرة قد تمت بين أبى بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجرّاح وهم سائرون إلى سقيفة بنى ساعدة لحظة وفاة رسول الله ﷺ بأن تكون الخلافة فيهم بالتوالى : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم أبو عبيدة ، وليس أمامهم من دليل إلا مبايعة الصدِّيق للفاروق وتعيينه خليفة من بعده . ثم مقالة عمر السابقة : « لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه بالخلافة » .. عجيب أمر هؤلاء المستشرقون فى كثير من الأمور !! وليس مع هؤلاء المستشرقين الزاعمين هذا الزعم غير ذلك من دليل ذى شأن ، أو قيمة ووزن حسبما يظنون لتأكيدهم فريتهم هذه ، وزعمهم ذلك الآثم .

هل ما كان من الصدِّيق عدلاً واستقامة ، وزهداً فى زخم الدنيا الفانية يُخوِّل لأحد أن يضعه موضع اتهام من أجل مناصب الحياة الدنيا مهما كانت ؟

وهل ما سارت عليه الأمور فى عهده من استقرار ، ونظام ، ومحافظة على الإسلام والمسلمين ، ودقة فى تنفيذ أحكام الدين - كما كانت أيام رسول الله ﷺ - تجعل أى إنسان يزعم بأن هناك من هو أولى من الصدِّيق بذلك الأمر .. خلافة رسول الله ؟

وليس الفاروق عمر بأقل من الصدِّيق أيام خلافته عدلاً ، واستقامة ، وزهداً ، واستقراراً ، ونظاماً ، وحكمة .

ولما كانت فترة خلافته بعد الصدِّيق دوَّن الدواوين ، وعدَّل فى أمر العطاء ، وعزل خالد بن الوليد ، فكان من مؤسسى الدول العظام عبر التاريخ البشرى كله ، وفى الدنيا كلها . فَمَنْ مِنْ احكام الدنيا غير عمر الفاروق قال : « لو عثرت بغلة بطف الفرات لشعرت أن الله يسأل عنها عمر : لماذا لم يمهد لها الطريق » ؟

فهؤلاء الرجال العظام ، الذين رباهم محمد ﷺ على مائدة القرآن كانوا من معادن غير المعادن التى يراها هؤلاء المستشرقون فى بلادهم ومن ذويهم . كان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة من معادن نقية طاهرة صافية ، فلم تكن الدنيا تُشغلهم بكل مناصبها ومراكزها بمثقال حبة خردل . وفى حياتهم ما رأيت .. ألم يتنح أبو عبيدة عن الولاية ويُطالب الخليفة عمر بأن يُعطيها لغيره ، ويطالبه بالجهاد ؟

فإن هؤلاء المستشرقين عندما زعموا هذا الزعم ليأكدوا هذه الفرية ظنوا بأن هؤلاء الرجال مثل رجالهم يتآمرون من أجل الحكم أو المنصب ، لأن هذا الموقع يُمَكّنهُم بأن يجنوا الكثير من المال وحطام الدنيا التى تُشغلهم كل مشغل ، ولا يمنعهم التحايل ، والدسيسة فى مؤامرة أو خيانة أن يصلوا إلى مناصب تُخَوِّل لهم جمع حطام هذه الدنيا ، فالغاية عندهم هنا تبرر الوسيلة ، فهم يزنون الأمور بغير ميزان الصدِّيق والفاروق وأبى عبيدة .

ظن هؤلاء المستشرقون بأن الصدّيق والفاروق وأبى عبيدة مثل الرجال الذين يرونهم ، فوقعوا فى هذا الخطأ الفادح عندما وجهوا لهؤلاء الرجال العظام هذا الاتهام . أو هم فى الأرجح أرادوا تراثنا العربى الإسلامى فى رجاله العظام فزعموا ما زعموا ، والله ، والحق ، والتاريخ يرد سهامهم إلى نحورهم ، وكان جزاء كيدهم دحض أعمالهم هذه .. فمتى يَكُفُّون عن ذلك ؟

* * *

الخاتمة

قال ابو ذر الغفارى رضى الله عنه : دخل رسول الله ﷺ منزل عائشة رضى الله عنها فقال : يا عائشة .. ألا أبشرك ؟ قالت : بلى يا رسول الله . قال ﷺ : « أبوك فى الجنة ورفيقه إبراهيم . وعمر فى الجنة ورفيقه نوح . وعثمان فى الجنة ورفيقه أنا . وعلىّ فى الجنة ورفيقه يحيى بن زكريا . وطلحة فى الجنة ورفيقه داوود . والزبير فى الجنة ورفيقه إسماعيل . وسعد بن أبى وقّاص فى الجنة ورفيقه سليمان . وسعيد بن زيد فى الجنة ورفيقه موسى بن عمران . وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة ورفيقه عيسى ابن مريم . وأبو عبيدة عامر بن الجراح فى الجنة ورفيقه إدريس عليه السلام .. » .

هذه بشارة النبى الرحيم لعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها بأن هؤلاء العشرة الذين تعرف عائشة ما أعطوه للإسلام ، وما تحمّلوا فيه من تبعات ، كما هى أيضاً بشارة للمؤمنين جميعاً بأن هذا جزاء الله الكريم لهؤلاء الذين قال سبحانه وتعالى فيهم : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً .. ﴾ (1) .

وإن باب الجزاء الطيب العادل لذوى العمل الصالح فى الإسلام الحنيف دائماً مفتوح على مصراعيه لعباد الرحمن جميعاً . وإن قصة عكاشة التى كادت تكون مثلاً يجرى على أفواه البشر فيما يقال متردداً : « سبقك بها عكاشة » مع النبى ﷺ ترينا سعة رحمة الله ، وحث المسلمين دائماً على الخير ، فالجزاء الكريم ينتظر كل عبد من عباد الله الصالحين .

وإن نظرة متأنية متأملة لحياة هؤلاء الأبطال العشرة الذين بشّرهم الصادق الأمين محمد ﷺ بالجنة ترينا نظرة مثل هذه مجالاً محدداً معيناً قد ميّز أعمال كل واحد منهم مع ما أعطاه فى مجالات أخرى ، فتجد أبا بكر الصدّيق قد تميز

---

(1) الأحزاب : ٢٣

مثلاً بالسبق الجميل فى كل جميل ، كما ترى عمر الفاروق القوة البناءة الخيرة مع العدل ، وحسن التنظيم والرحمة .

ونجد ضياء الإيمان فى مكارم عثمان بن عفان ، والحكمة تمتزج بالبطولة فى حياة علىّ بن أبى طالب عليهم جميعاً رحمة الله ورضوانه .. وهكذا بالتأمل نرى ذلك يسيراً عند كل واحد من هؤلاء العشرة الكرام البررة .

وفى ذلك يُلَبِّى الإسلام متطلبات الفطرة لدى كل إنسان ، فيرعى ما يتميز به ، ويوجهه الوجهة القويمة ، وكأنه يريد أن يستثمر طاقات الجميع ويحثهم على العمل مراعياً ما فُطِروا عليه من فروق فردية . فسبحان خالق النفوس .. إنه تعالى بما تريد أعلم ، وبما يُقَوِّمها أحكم ، إذا أعطيناه القياد ورجوناه سبحانه وتعالى الزاد .

وها هم أولاء الرجال العشرة أسلموا لله تعالى القياد ، واغترفوا من القرآن ومحمد ﷺ العلم ، فهدتهم تقوى الله لكل جميل جليل ، فنالوا الجنة نِعْمَ الجزاء من الله الرحمن الرحيم ، وأعطوا أمتهم العطاء الجميل .

وليس على أبناء الأمة الإسلامية – وهذا باب المنافسة فى الخيرات مفتوحاً – أجَلّ وأجمل من إعداد الناشئة على مائدة القرآن ومبادىء الإسلام ، فيكون المسلم قوة خيِّرة راشدة بنَّاءة ، فيُعد نفسه إعداداً إنسانياً سامياً ، ثم يُعطى مجتمعه الخير والبركة ، وأمته القوة والعزة والمَنَعة .. فتكون كما قال تعالى عنها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [1] . فتُعطى الإنسانية كلها حضارة إنسانية سامية راقية ، يسعد فى ظلها الإنسان .. كل إنسان .. إنها حضارة الإسلام ،

المؤلف

* * *

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - أبو عبيدة بن الجرَّاح - القائد الفذ : د . محمـد إبراهيم نصر وآخر - ط ٢ دار اللواء - الرياض - المملكة العربية السعودية .

٣ - الجلالين - تفسير القرآن الكريم .

٤ - حياة الصحابة : محمد يوسف الكاندهلوى .

٥ - حياة محمد : د . محمد حسين هيكل .

٦ - خصائص العشرة الكرام البررة : الزمخشرى .

٧ - رجال حول الرسول : خالد محمد خالد .

٨ - الرياض النضرة من مناقب العشرة : للمحب الطبرى .

٩ - الزبير بن العوَّام : صابر عبده إبراهيم - دار الوفاء - المنصورة - جمهورية مصر العربية .

١٠ - سعد بن أبى وقَّاص - قائد المسلمين فى معركة القادسية : د . محمد إبراهيم نصر - دار اللواء - الرياض .

١١ - سلسلة أعلام المسلمين - محمد ﷺ : على إسماعيل - الأندلس - البحرين .

١٢ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : ابن عبد البر .

١٣ - السيرة النبوية : ابن هشام .

١٤ - صحيح البخارى .

١٥ - الصدِّيق أبو بكر : د . محمد حسين هيكل .

١٦ - صور من حياة الصحابة : رأفت الباشا .

١٧ - عبقرية خالد : عباس محمود العقاد .

١٨ - عبقرية الصدِّيق : عباس محمود العقاد .

١٩ - عبقرية عمر : عباس محمود العقاد .

٢٠ - عبقرية محمد : عباس محمود العقاد .

٢١ - عثمان ذو النورين : عباس محمود العقاد .

٢٢ - العشرة المبشرون بالجنة : د. سيد الجميلى - دار الكتاب العربى - بيروت .

٢٣ - العشرة المبشرون بالجنة - رضى الله عنهم : محمد على قطب . - مكتبة الغزالى - دمشق .

٢٤ - الفاروق عمر . : د . محمد حسين هيكل .

٢٥ - فتوح الشام . : الواقدى .

٢٦ - قادة فتح مصر والشام : محمود شيت خطاب

٢٧ - موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية : د . أحمد جاب الله شلبى .

٢٨ - محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية : الخضرى

٢٩ - موطأ الإمام مالك .

٣٠ - النظريات السياسية : د . ضياء الدين الريس .

* * *

المؤلف

- على إسماعيل محمد موسى الناقش .. من مواليد سـنة ١٩٤١ بأولاد عليو - البلينا - سوهاج - جمهورية مصر العربية .

- تخرج فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة سنة ١٩٦٣ - ثم حصل على دبلوم فى التربية - فالدراسات العليا - ثم الماجستير سنة ١٩٨٣

- عمل بالتدريس فى جميع مراحل التعليم العام . أشرف على التربية العملية بكلية اللغة العربية - البيضاء - ليبيا - كلية التربية جامعة عين شمس .

- يعمل خبير باحث أول الدين واللغة العربية بالمركز القومى للبحـوث التربوية بالقاهرة

من مؤلفاته :

١ - النقد والأدب والبلاغة والعروض - مع آخر - الجهاز المركزى للكتاب الجامعى بالقاهرة .

٢ - اللغة العربية لغير الناطقين بها . - المركز القومى للبحوث التربوية مع الجامعة الامريكية بالقاهرة - مع آخرين .

٣ - اللغة العربية لمرحلة التعليم الأساسى - المركز القومى للبحوث التربوية - مع آخرين .

٤ - التعليم فى مصر حتى عام ٢٠٠٠ - المركز القومى للبحوث التربوية - مع آخرين .

٥ - مناهج الدين واللغة العربية لمدرسة الفصل الواحد - المركز القومى للبحوث التربوية - مع آخرين .

٦ - تقويم الطريقة التكاملية فى القراءة والكتابة - المركز القومى للبحوث التربوية - مع آخرين .

٧ - المسح القرائى - المركز القومى للبحوث التربوية - مع آخرين .

٨ - مناهج التعليم الأساسى بجمهورية مصر العربية - المركز القومى للبحوث التربوية - مع آخرين .

٩ - نماذج بنوك : أسئلة فى اللغة العربية - المركز القومى للبحوث التربوي - مع آخرين .

١٠ - ابن هرمة بين الدولتين الأموية والعباسية - رسالة ماجستير غير منشورة .

١١ - الأخطاء الشائعة بين تلاميذ المرحلة الابتدائية - الجزء الأول - غير منشور .

١٢ - نحو تيسير القراءة والكتابة فى اللغة العربية - دار القلم - دولة الكويت .

١٣ - سلسلة « من أعلام العرب والمسلمين » - الكتاب الأول : محمد ﷺ - الأندلس - البحرين .

١٤ - المرأة العربية فى الجاهلية - الأندلس - البحرين .

١٥ - العديد من المقالات : نشرت بالصحف والمجلات العربية فى الدين والتربية واللغة .

* * *

تحت الطبع

١ - من التراث : ابن هرمة القرشى .

٢ - الموجه الفنى الجديد لمعلمى الدين واللغة العربية .

٣ - قواعد اللغة العربية للمرحلة الابتدائية - منهج وطريقة .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

* * *

رقم الايداع بدار الكتب : ٥٢٨٨ / ٨٩

الترقيم الدولى : ٦ ـ ١٩٣ ـ ٣٠٧ ـ ٩٧٧

